جمر بارد

أوراق وقتنا الضائع

أحمد المديني

جمر بارد

أوراق وقتنا الضائع

تأليف
أحمد المديني

هنـــداوي

جمر بارد

أحمد المديني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٣١١ ٦

صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٨.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور أحمد المديني.

المحتويات

هذا الكتاب ... ولماذا؟	٧
الجزء الأول: في انتظار الجولة القادمة	١٥
عن الحزانى، عن الفرحين، وعن أصحاب اليقين	١٧
لمجد الغد	٢١
لإعادة الاعتبار للعمل السياسي	٢٥
مغاربة، لكن من أي طينة؟!	٢٩
دعاة الزور و«لبن العصفور»!	٣٣
الوطنية أولًا، والمواطنة دائمًا	٣٧
التنمية كمَهمة نهضوية	٤١
يوم سِرنا خِفافًا ... كالملائكة!	٤٥
من وأد الماضي إلى سلب المستقبل	٤٩
لا بحر في المغرب!	٥١
في انتظار الجولة القادمة	٥٥
الجزء الثاني: «تموت الحرة ولا ...»	٥٩
في تعليم معنى الوطن	٦١
الحاجة إلى المدرسة الوطنية	٦٥
البعد الثقافي للذاكرة الوطنية	٦٩
المتفوِّهة، مثقفونا الجدد!	٧٣
من المثقف الوطني إلى المثقف المحترف	٧٧

المثقف مشجبًا لكل ورطة! ٨١
المثقفون، والمعلقون، والآخرون ٨٥
«تموت الحرة ولا تأكل بثديها» ٨٩
كان عامًا اسمه ... بن بركة ٩٣
عبد الله إبراهيم: الدرس الآخر ٩٧
من يخاف ... أحمد المجاطي؟! ١٠١
«حديث خرافة يا أم عمرو!» ١٠٥

الجزء الثالث: من يغرِّد بداخلك؟ ١٠٩
«أفديه إن حفظ الهوى أو ضيَّعه» ١١١
صباح الخير يا الحزينة ... مثلي! ١١٥
قريبًا من زهرة اللوتس ... السحرية ١١٩
عن تلك البناية الغامضة ... لن أحكي ١٢٣
بالكلمات ... ورفيف الأخيلة ١٢٧
أمريكا، أمريكا! ١٣١
يسرقون الحياة، والموت أيضًا ١٣٥
في شالَّة، الموتى يرقصون أيضًا! ١٣٩
هل تعلم أن فاس يسكنها الجان؟! ١٤٣
توابل مراكش الفناء ١٤٧
ورأى في بلاد مراكش عجبًا ١٥١
أيها المصطفى ترجَّل ١٥٥
يوم جرحتني ... تلك الرباط ١٥٩
الكلمات: جثث ستُبعث يانعة! ١٦٣
ثمة شاعر يغرد في داخلك ١٦٧

هذا الكتاب ... ولماذا؟

لا شك أن كل كاتب يطرح على نفسه، في وقت من الأوقات، سؤال جدوى الكتابة، والسبل الكفيلة لبلوغ مرماه أو مراميه منها، إن هي وُجدت محددة في سريرته وعقله. مثل هذا السؤال قد يأتي جهيرًا ومباشرًا، كما قد يظل مضمرًا يتلجلج في الصدر، محدثًا تلك الحيرة الملازمة عادة للمبدع الذي كثيرًا ما يتحرك في مساحة الحدوس والهواجس، ويسعى إلى تشخيص الرؤى وبلوغ الهدف من العمل بأدوات الرؤية والصناعة الفنية وأساليب المجاز.

وسؤال الجدوى قرين بمفهوم للكتابة يضعها في خدمة الأغراض الاجتماعية والإنسانية عامة، تلبي، وإن على مستوًى مغاير، إحدى حاجات الإنسان في الأرض وتستجيب لها بالعبارة والصورة والإيقاع، مناطها الإحساس قبل الموضوع، أو إن هذا يحمل روح الأول ويتشكل بصيغه قبل كل شيء. لم يكن الأدباء في حاجة إلى التبلور الفكري والنقدي لمفهوم الالتزام، كما تَحدد في خمسينيات القرن الماضي، لِيعوا بأن الأدب، والكتابة عموما، تستمد مضامينها، كيفما كانت، من قلب المحيط الاجتماعي المتبدِّل، ومن فضاء الحياة الإنسانية وتجاويف الذات المركبة، وبالتالي تتطلب من الكاتب الانخراط في تغذية وعي الجماعة بتبني مشاغلها والدفاع عنها وفق اقتناعات وبقوالب معينة، تؤكد كلها في نهاية المطاف حضور الفرد ضمن المجموع، وتلازم الشعور الذاتي بالمكون الموضوعي. لقد أدركوا ذلك في مختلف العصور، وجاءت إبداعاتهم مصداقًا له، بهذا القدر أو ذاك، حسب الشروط الموضوعية التي سادت في أزمانهم، وعلى ضوء الأهمية المعطاة للكلمة، وللتعبير الثقافي الإبداعي عمومًا.

بَيدَ أن تطلُّب التزام الكاتب بالدعوة إلى حتمية انخراطه في الشاغل الجماعي، نتيجة إملاء أيديولوجي، أو للتغير الذي طرأ على نسَق الكتابة من تغيُّر — الأدب تحديدًا — ووظيفتها في المجتمع، هو في الحقيقة وليد الحقبة التاريخية التي أنجبت صيغة الالتزام بعناصرها المركبة المتعددة الأبعاد. ذاك التغير المرتبط أصلًا بنشوء وضع المثقف كما أنجبته

الظروف السوسيوثقافية في فرنسا على وجه الخصوص. وبالإمكان القول بأن شعوب العالم الثالث، ومنها البلدان العربية، قد خضعت بدورها، وحسب نوعية الملابسات التاريخية التي صنعت أحداثها وصراعاتها — الاستعمارية بالذات — إلى تبلور وضع متميز — للمثقف أولًا وللكاتب لاحقًا — جوهره الدفاع عن السيادة، ورفع شعار الإصلاح، واكتساب هُوية التحرر والتحديث. هي الخصائص التي طبعت كتابات ونشاط شرائح المفكرين والكتاب العرب — فضلًا عن رجال السياسة والإصلاح الوطني — لتضعهم في صفٍّ واحد تقريبًا مع قادة الحركات الاستقلالية. وعليه فإن الكاتب انتمى إلى بلدان الشمال أو جذوره في الجنوب، وبالوضع الجديد المتبلور تدريجيًّا لممارسته أو «مهنته» جعل إنتاجه — إبداعه — أبدًا في قلب حاضره وهموم البشر في زمنه، ما يؤهل كثيرًا من النصوص، أمهاتها في الحقيقة؛ لتكون شاهدًا على عصرها راسمة تقاسيمه وناطقة بحقائقه ولواعج ناسه. كما أن هذا الانغراس في الإحساس الجماعي وشاغله يوسِّع من دائرة تعريف الإبداع الأدبي، في حيزه المستقل، كي يتسع على تعددية المعنى، وليصبح تعبيرًا إنسانيًّا بقدر ما يشفُّ عن ذات فريدة متفردة بمشاعرها، وعكسه صحيح أيضًا.

أما إن تجاوزنا هذه المقدِّمات العامة المبدَّهة؛ فإننا نطرح سؤالًا أكثر دقة نريد أن نثير من ورائه مسألة هل بإمكان الكاتب أن يكتفي — ونحن نعني هنا من يستخدم الكلمة في مضمار الأدب وبأدواته شرطًا — بأعماله الخاصة ليرتبط بالنسق الاجتماعي، وعبرها يحقق لإنتاجه الانتماء إلى الزمن التاريخي، بالوسائل المخصوصة للإبداع الأدبي مثلًا أم إن هذا النهج وحده قاصر عن أداء الرسالة على وجهها الأحسن؟

مصدر السؤال، في الحقيقة، وجود صنفَين من الكتَّاب بهما يتحدد الاختياران المذكوران — بل أكثر — إذا أخذنا في الاعتبار أن هناك كتَّابًا لهم عطاء في حقول عدة، ويسجلون حضورهم في الحقل الثقافي والسياسي والاجتماعي، وهي ظاهرة تجلت كأقوى ما يكون مع لفيف الكتَّاب الذين انتقلوا إلى إسبانيا لمساندة الجبهة الشعبية ضد عسكرتارية فرانكو (همنغوي واحد من عديد)، وأخذت في التنامي مع سارتر وكامي، وبلغت ذروتها عند عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو، وعالِم اللسانيات الأمريكي الشهير نعوم شومسكي، فضلًا عن شعراء وروائيين مرموقين في أمريكا اللاتينية وعالمنا العربي أيضًا. وإذا كان غرامشي قد تحدَّث في مذكراته السجنية عن مفهوم «المثقف العضوي»؛ فإن هؤلاء ومن في فلكهم خرقوا حدود الدائرة الأيديولوجية الغرامشية، وربطوا وضعهم بمبادئ أخلاقية ثقافية ومُثل إنسانية. وهي عمومًا تمثِّل امتدادًا لإنسانيات وقيم الثقافة الغربية لعصر الأنوار،

وتطويرًا لها، إما على أسس فلسفية، أو سياسية في صورة مناهضة الهيمنة الإمبريالية، وتبنِّي قيم التحرر عامة، أو بالارتباط بالفضاء الأرحب لحقوق الإنسان. وفي البيئات الثقافية العربية يبدو هذا المنزع أقوى حضورًا من غيره، بل الطاغي والأوكد. ولا شك أن دراسة تختص بأحوال الكتاب العرب على امتداد القرن الماضي، سواء مضامين أعمالهم أو مواقعهم الاجتماعية ومواقفهم السياسية تجاه قضايا الصراع الاجتماعي في بلدانهم، ستكشف وتقدِّم حقائق شديدة الدلالة في هذا المنحى، نحن في أمسِّ الحاجة إليها.

لن أذهب للبحث عن الجواب بتغليب صنف أو منزع على آخر، بل عندي جواب جاهز لأسئلة ذات طبيعة مفتوحة، وإنما أنا أتخذ السؤال مطيَّة لغرضي أو وضعي الشخصي مع آخرين، ولأسائِل وأحاور نفسي فيما أحدِّث غيري، إليهم أتجه بالدرجة الأولى وإلا لا مبرر لهذا التقديم. هكذا أعود لأتساءل: ألا تكفي الرواية أو القصيدة؛ النص الأدبي إجمالًا، بؤرةً لتسجيل الموقف إلى جانب تعبيره الذاتي على نحوٍ ما، وهو صنيع كتَّاب لا حصر لهم لم يقولوا شيئًا آخر خارج إبداعهم، وتفوَّقوا إلى حدٍّ بعيد في صوغ رؤيةٍ تتضافر فيها الأنا والآخر في انصهار تام؟ وإذ أحبذ هذا الاختيار، وأراه ينسجم مع العملية الإبداعية ذات المقتضيات السليمة، أضيف بأن بين هذه المقتضيات ما لا يسمح بأن يرتفع الصوت بالنقد والاحتجاج واتخاذ الموقف الجهير المباشر؛ الصوت الذي يبلغ أقصى مدًى ممكنٍ متجاوزًا الحدود المحسوبة — في النهاية — لجمهور التلقي الأدبي، وناقلًا خطابًا ذا سياقات وغايات مسمَّاة وعاجلة. وإذا كان الكاتب منخرطًا في الصراع الاجتماعي، منتميًا سياسيًّا أو نقابيًّا، أو فاعلًا في المجتمع المدني بلغة اليوم؛ فإنه لا محالة مسخِّرٌ قلمه في هذا النهج، في كتابات ظرفيةٍ ما في ذلك شك، لكنها بِنت واقعها، مرآةٌ له، وتبقى جزءًا من لحظة وعي تاريخية لشريحة أو طبقة اجتماعية، وقد لا تقل أهمية، وإحكام فكرة، وبُعد نظر أنضج وأبقى، وعندنا ما لا حصر له من الأمثلة، غربًا ومشرقًا ومغربًا ممن أفلحوا في هذا الميدان، ولهم فيه دلائل وآيات.

إنه حال قسم كبير من الكتاب العرب، والمغاربة في قلبهم. وعلينا أن نذكِّر في هذا المقام بوجود تداخل شبه تام بين تكوُّن المتن الأدبي الحديث في تصنيفه الأجناسي المجدد، وبين المتن الصحفي أو الذي احتوته الصحافة، الملتزم بالقضايا الوطنية الاجتماعية المباشرة، الذي شُحذت عليه أقلام الكتاب وشادت بناءه على مرِّ حقب الاستعمار والاستقلال، وإلى الآن. وما ذلك إلا لأن الكاتب الأديب كان وما يزال في مجتمعاتنا شأنَ الفقيه — رجل الدين سابقًا — عضوًا فاعلًا في الجماعة يوجهه جذره العقيدي وانتماؤه الوطني، عفويًّا

أو ارتباطًا، إلى حشد القول في معركة الإصلاح وبناء المجتمع الناهض بعد سبات وبَوار. لا عجب إذا كانت النزعة الواقعية هي الغالبة على إنتاجنا الأدبي، أو ما استطاع أن يستقلَّ بنفسه مدونة أدبية. فهذه النزعة لا تعير الأدبية إلا أقل الاهتمام، وتذهب إلى جعل المضمون قاعدة النص، وقالبه وأسلوبه ليسا أكثر من أداة لتبليغه.

هل أحتاج إلى القول — بعد هذا — بأن حال البلدان العربية — حال بلدنا — هو من الزراية في نواحٍ شتى حدًّا يمكن أن ينظر فيه إلى الأدب إن لم نقل حِرفة بائرة، فهي مترفة، ليس فقط في مجتمع نسبة أميته عالية، وسكانه معادون بشكلٍ ما للقراءة نافرون منها، بل ربما لأن هناك ما كان، ويستمر، في حاجة إلى معالجة حارة بالمقال الصحفي والموقف الصارخ، لا تخييل ولا مجاز ولا لغة منمقة أو مغوِّرة. وهكذا تكون المقالة الصحفية — سياسية أو اجتماعية — ملتزمة في خط مباشر هي الجذع المشترك للكتابة الأدبية، حولها التقى الأدباء ومنها تفرقوا بعد أن أدَّوا واجبهم المِلحاح تجاه شئون الإصلاح والدعاوى المبشر بها من الأحزاب أو الوعي الوطني عمومًا.

أعتبر نفسي ابنًا لهذه المدرسة، فيها قرأت لوحي ومحوته مرارًا لأعود أسطُر عليه مستجدات الأيام، ومن أحد فصولها الداخلية التي كانت تُسمى نضالية في عهدٍ سلف — من أسف — تخرجت أو بالأحرى خرجت؛ لأن وسواسي ظل دائمًا أبعد من الآني، وأنا فيه وملتزم بمنهجِ تغييره لأفضل منه، وأنزع نحو القول الأدبي أنشُد فيه تعبير الذات القلقة في شساعة الوجود المعقد. لكن، وبما أن الإنسان ابن بيئته مهما شذَّ أو شطَّ طموحه وخياله؛ فقد كبرتُ ثقافيًّا وكتابة موزَّعًا متنازعًا بين سجلَّين من القول؛ واحد أدبي صِرف مركَّب بين إبداع ونقد وبحث، وثانٍ صحفي توجيهي تعبيئي مُبلغ للمقاصد من أيسر طريق. وفي هذا النهج الثاني صرفت زمنًا وإنشاءً، وأحسب أني صُغت بين أبناء جيلي الكثير، بينا غيري حبيس النزر أو مكتفٍ به لشأنه، مقالات مسترسلة على امتداد أعوام، وفي حقبٍ أغلبها مدلهمٌّ لا ميسور متاح بلا قمع ورقيب، حفلَت بها الصحافة المغربية والعربية عامة الموصوفة بالتقدمية خاصة. وقد أتيح لي أن أجمع قسمًا منها في أضاميم كتب، بينا أغلبها ما زال مفرَّقًا بين شتات الصحف والمجلات، على مدى ثلاثة عقود من مطلع السبعينيات وإلى مطلع القرن الجديد، وضعت فيها ما في الوجدان والعقل آراء وخواطر، ونقدًا وسخطًا واقتراحات، عن ما يسود حياتنا العامة من أزمات وشوهات في وجوهها المختلفة، وبعضها الآخر عما كابدته النفس من مشاعر ذاتية ومتفتحة في آن. هذا كله وسواه مرسل بلغة البوح تارة شاعرية مجازية ومشبوبة، وطورًا نبرُها غاضب وصوتها يصول ويجول، وفي الحالتين

يبقى نشدان كل ما يعمر الحياة بالعدل والكرامة، وينصف الإنسان بالحب والجمال هو لحمتها وسداها.

في كتابَيَّ المعنونَين «كتاب الضفاف» و«كتاب الذات ويليه كتاب الصفات» قدر لا بأس به من هذه النصوص والخصائص، وُضعا معًا في فترة إقامتي الأولى بباريس، من الثمانينيات إلى التسعينيات الماضية، وحفلَا بصبوات الشباب وتطلعاته الجامحة. وقد توقفت فترة عن نشر المقالات والتعليقات في الصحافة، منصرفًا إلى أعمالي الأدبية في الرواية والقصة القصيرة والبحث الأدبي هو ضالتي الأولى، ثم ما لبثتُ أن عدتُ إلى كتابتها «بتواطؤٍ» مع جريدة «الاتحاد الاشتراكي» المغربية البيضاوية العريقة، سليلة «التحرير» و«المحرر» اللتَين نشأَت فيهما وترعرعت أقلامٌ مغربية من رعيل الستينيات والسبعينيات الماضية، حملَت مشعل النضال التقدمي، وارتادت آفاق التحرر الاجتماعي والسياسي، كما رسَّخت أسس التنوير الفكري والتحديث الأدبي، ولم يكن تصور الكتابة عند أصحابها خارج رؤية مشروع بناء مجتمع جديد منعتق من قيود الاستبداد والجمود، ولا بد أن يتطابق معها مبشرًا ومنورًا نصيرًا.

هكذا، وعلى امتداد عامَي (٢٠٠٤–٢٠٠٦م) أصدرتُ مقالة أسبوعية على الصفحة الأولى من صدر الصحيفة المذكورة، وكنت خلالها متناوب الإقامة بين الرباط وباريس، وهو ما أثر — بطبيعة الحال — على نظرتي لمحيطي وإدراكي للأشياء وإحساسي بالحياة بين عالَمين. أظنه ذلك التأثير الذي حوَّلني إلى كاتب غير ملزم أن يتقيد بضوابط المكان الذي يوجد فيه، وربما — إن صح القول — أصبح نصه — المشيد تباعًا — هو مكان وورقة إقامته المشروعَين والمحتملَين، وعداه توافق وتسويات. لقد أعطت هذه المرحلة حصيلة مقالات متعددة الأغراض متشعبة في مقاصدها متباينة القاموس والأسلوب والنبرة، لكنها جُلها مطبوعة عندي بثلاث خصائص على الأقل، تاركًا للقارئ الفطن أن يستدرك المنقوش عليها ظاهرًا وباطنًا:

(١) طَرقها للقضايا الملحة في واقع يومي متشابك الخيوط مركب الأبعاد، يملي على الكاتب عرضًا أو شرحًا أو فضحًا في خط انتقال إلى الأحسن، والقطع مع ثقافة الغيبوبة والاستسلام.

(٢) معالجتها لمواضيع وانشغالات أوسع من هذا الواقع في حركته العرضية، بالاندراج في السيرورة المفتوحة والمتفتحة، بعيدًا عن يقين السياسي المتخشب أو أي معتقد متصلب، ولزوج الثقافة والإبداع هنا مع التحليق برفيف الأخيلة ورفقة سِيَر الكبار حضور سارٌّ ومتعدد الدلالة.

(٣) سواء كتبنا العابر، أملاه الالتزام الصحفي والمذهبي، أو الضمير الوطني، وهما لا يتعارضان، أو أخذتنا الجاذبية الغربية متلألئة بالجمال والحرية وقوة الكينونة؛ فإن هناك دائمًا كاتبًا واحدًا وروحًا منسجمة تتخلل النصوص، ويتناغم أداؤها من مقال إلى مقال يُرى في كل مرة يتنوع. أنت إذا أردت وضع قاعدة له لن تجد أفضل من قول البلاغيين إن لكل مقام مقالًا، وكذلك هي. وإنها مناسبة مواتية لي لأعلن أنني، ورغم ما يُتداول عن وجود لغة صحفية، أو عربية مبسطة عصرية مزعومة، لا أفرق في المقامات من غير أن أتناقض مع القاعدة. إذ — ومع وجوب أخذ حساب المتلقي — فإن للكاتب أسلوبه هو، وهل كان طه حسين إلا ذاته بين أمهات كتبه البحثية، وفي مقالاته الشيقة بـ «حديث الأربعاء»، وأنا ممن يعتبرون أن القارئ لا يبحث عن المعرفة، ولا التجربة وحدهما، بل يستحسن أن يذوق رحيقهما في شغاف وردة عطرة.

على أننا، وقد قررنا أن نصنع من هذه المقالات الأعضاء جسدًا كاملًا في هيئة كتاب؛ فإننا عمدنا إلى تقويم هذه الأعضاء لتستوي في صورة مصقولة ومشذَّبة. هكذا فإننا أولًا، قمنا بانتخاب الأجدى وما نحس به أبعد من المقروء العرضي ذي الطابع الصحفي المحض. ثانيًا، تدخلنا في هذه المقالات لم نبقَ في كثير أحيان سوى على الأصول، منقحين بما يلائمنا على أحسن وجه، واجدين حرية أوسع من حدود المنبر الصحفي المحكوم معذورًا بـ «قواعد اللعب». ثالثًا، وضعنا إلى جانبها نصوصًا أخرى لم يسبق نشرها، وإن انتمت جميعها إلى سياقها ومرماها، نعتبرها تقيم صلة وصل بين المحظور والمسموح، أو المباح. رابعًا، قمنا بإعادة تركيب الأطراف، إياها، لنقدمها إلى قارئٍ جديد، على الأقل مختلف، عندئذٍ أبدلنا زمنيتها السابقة بأخرى موضوعاتية، وإن كان من الضروري التنبيه إلى أن مقروئيتها تعتمد على استحضار ضمني من طرف القارئ لسياقات كتابتها، تبقى حية ملحة بصعابها المزمنة والآمال المنشودة فيها. بهذا التعيين والترتيب أتت على ثلاثة أقسام، هي ما خلصنا إليه بعد الغربلة والنخل آملين بروز النواة، وتوفير زاد مستساغ لقارئ نريد له أن يفيد ويستمتع في آن.

وإذ عرضنا مطلب هذا الكتاب والغاية منه — ليسمح لنا القراء تأكيد ما سبق التنويه به — أهمية أن يضطلع الكاتب إلى جانب شئونه وشجونه الأدبية الخالصة بالقضايا العاجلة والشواغل العارضة متقلبة بين مسائل المجتمعي والمعيش والسياسي؛ فإن تدخله في ميدانها إذ يؤكد وضع الأديب الملتزم الذي تحتاج إليه بلداننا دائمًا وهي تواصل معركة النمو وإرساء الحياة الحرة الكريمة، كما تحتاج إليه الإنسانية جمعاء، وقد أنجبَت أبناء

يحفظون ذكرها وبقاءها بكلمات الوفاء والتبجيل لما يحقق للإنسان جدارة الوجود وتعظيم مُثله وقيمه الكبرى؛ أقول إن ذلك يعضد وضعه الأدبي ولا ينتقص من قدره أو يعرضه للابتذال، كما قد يتصور البعض. خاصة أن منظور الكاتب الحقيقي منظور فريد يغني كيفية قراءة المحيط، ويكشف عن مخبوئه، ويعطي لمساهمته صدقية أفضل ما دام حامل القلم هنا بعيدًا عن السجال، وغير مشارك في جوقة المطالب ولا سباق المصالح، إلا مصلحة العمل الوطني والضمير الأخلاقي.

الجزء الأول

في انتظار الجولة القادمة

عن الحزانى، عن الفرحين، وعن أصحاب اليقين

بالأمس القريب كان الناس — ما زال بعضهم — يقسمون المذاهب والأحزاب والتيارات، سياسية وعقيدية وفكرية، ويميزونها بين يمين ويسار، ووسط وتشدد أو تطرف. واليوم، مع ما اعترى العالم من تبدلات خلخلت الأيديولوجيات وهزت المنابر، صوابًا أم خطأً، ظهرت تقويمات وتصنيفات جديدة حينًا، ومتكيفة مع الزمن الاقتصادي والثقافي حينًا آخر. وعمومًا فكل التيارات إما اعتراها التجديد أو أصبحت مزيجًا من كل شيء، ومن ثَم فكلمة New الإنجليزية — مثلًا — بمعنى جديد أصبحت لصيقة بأي اتجاه حتى وهو بالٍ هرم. وعلى الرغم من أن المزاج، أي الطبع والحالة الذهنية والنفسية العابرة بصفة عامة لا يمكن أن يتدخَّلا بكيفية حاسمة في صنع المفهوم الأيديولوجي، ولا في ضبط المحرار الفكري؛ فإننا نجد بعض الفئات الاجتماعية تنتسب إلى انتماءات وثقافات مختلفة، تحاول أن تحكِّمهما بديلًا عن اتجاهات أيديولوجية كانت لها السيادة في تنظيم البشر، وترتيب الأفكار وتوزيع الأسواق.

في مغرب اليوم، وفي حمَّى ضربٍ من الخلط والتعويم السائدَين في مجالات شتى، انتقلنا إلى واجهة التصنيف الجديدة؛ فقام فينا ثلاثة دعاة يريد كل واحد منهم بخطابه وسلوكه وأحلامه (أوهامه)، أن يكون الحاضر ويشيِّد المستقبل باسمنا ونيابة عنَّا جميعًا، علمًا بأننا مجتمع بصدد التحول الديمقراطي والإيمان بالاختيار الحر. أراني مدفوعًا إلى هذه الصنافة لا قِبل لي بالمماحكة أو السجال، لا مع كبار القوم ودونك الأذناب! نرى من يصح عليه قول أبي ماضي الشهير: «قال السماء كئيبة فتجهَّما ...» ويسعى ليقنع الخلق جميعًا بأنها كذلك، وأن الكآبة هي الملة الوحيدة الجديرة بالعباد؛ فإن هُم تركوا أنفسهم للحياة — في أحيان كثيرة هم فقراء أشقياء — سلَوا ربهم وهجروا دينهم، وطبعًا باءوا

بوبالٍ شديد. هذا الداعية يلغي الحاضر ويعدم الكائن ويلحق المستقبل بالغيب دائمًا. وهو إذ يريد ربط غد العباد بالآخرة وحدها عن طريق تعميم حالة الحزن ونشر الاكفهرار — ذلك أن الفرح ليس إلا المجون والشيطان! — فإنه بهذه «الأيديولوجية» الجديدة غايته التحكم في الرقاب والسيطرة على الحاضر والمستقبل عنوة باسم ملة لا يد له في وضعها، كما ليس لأحد أن يستبد بتقرير شعائر وسلوك المكلفين فيها؛ فكيف لو نحن انتقلنا إلى ما يشرح الخاطر إما بالاستمتاع بعذب الغناء، وبما خلق الله من مباهج الدنيا وما وهبَ هو الوهاب للخير والجمال، والصوفية أجلُّ محبيه يسمونه الجميل، فيما البومة لا يرون في سماء دنيانا إلا التجهم؛ لذا نقول لهم إن السماء التي نحلِّق فيها نحن لا تطير فيها البوم ولا ينعق فيها الغربان.

الداعية الثاني، ينظر إلى السماء حد البلاهة أحيانًا. تحسبه مع كل نظرة يريد أن يفتح في وجهها أشداقًا لتضحك — قل تقهقه — ملء فيه وفيها، دليلًا على أن البهجة والرضا يسودان الأكوان. لا يفل الحديد إلا الحديد، ولذا لتكُن البهجة والفرجة والمهرجة العلاج الشافي لأوصاب المهجة، ولنطوِ الحاضر كله في موجة للغناء، لجسد لدنٍ يتغنج، للطبل والغيطة، وفرسان يضربون عين الشمس وهي حامية بعيون عمياء وقلوبٍ دامية؛ لا يفل الحزن المصنَّع عندهم إلا الفرح المعلَّب، بالمفرَّق والجملة، الفرجة بالمجان يا سادة، لكن ساعة، يومًا واحدًا «حلم ليلة صيف» لكن ليس لأحد أن ينسى أن الطلق ممنوع وأن الرزق دومًا على الله! جميع بشر هذا البلد ينشدون الفرح، وأسخف نكتة تدغدغهم من شدة تكالب الأحزان. كيَّة في القلب وبسمة فاترة كالذل على الشفاه. في زيارة كاميرا قناة الفرحين تلك، إلى مؤسسة خيرية في مناسبة منظمة سأل المستجوِب المتذاكي طفلًا بدا منشرحًا وبيده لا شيء: «لماذا أنت فرِح؟» فأجابه بعفوية المغلوب على أمره: «لأني أرى الناس من حولي!» وهو الذي يعيش وراء جدران مؤسسة مغلقة دون الحياة ... والفرح طبعًا.

وما أدراك ما أصحاب اليقين. هؤلاء يُفتون في كل شيء، آناء الليل وأطراف النهار. حاضرون جازمون عندهم جواب لكل سؤال، لا يتبلبل لهم فكر ولا بال. إذا وقفوا وراء المنابر بسطوا الطمأنينة والخير العميم بغزارة الفقر على جميع المواطنين. إذا وُضعت أمام أنظارهم معضلات الأرض — أرضنا نحن — بمعادلات بسيطة أوقفوا المنكر، قوَّموا المعوَج، بدَّدوا الغيم، نشروا الصحو. يملكون عبارات منمقة — لا فُض فوهم — وصيغًا منسقة وأرقامًا واستشهادات ملفقة يحفظونها عن الغيب كأناشيد الأطفال، لولا أن هؤلاء أبرياء وأولئك «مزيِّفو نقود». ليس قبلهم أحد، لن يأتي بعدهم أحد. الماضي زُوِّر والحاضر هم،

والمستقبل فيه هم البديل والوسيلة والغاية والأمل والفلاح والنجاح والمصباح، وسواهم ليس إلا العدم. هؤلاء بالذات لا يتعلمون شيئًا من التاريخ، أحرى أن يستوعبوا دروسه. والتاريخ فضلًا عن أنه ليس ملكًا لأحد هو ذو مجرًى متغير، ليس مصنوعًا من الأبيض والأسود (من الحزن أو الفرح متباعدَين)، وهو ملك للشعوب التي تصنعه وتستطيع أن تقلب الدنيا فوق رءوس كل الأفَّاكين، ومن ضربهم المتاجرين بأنواع من اليقين لا تقبل عندهم الشك، أو النسبية، أو الاحتمال. من هؤلاء؟ سيسألني، أو ربما يحقق معي شخص على الطريقة البوليسية الفجَّة؛ فهناك دائمًا أشخاص أو أطراف تُستفز في حالات مماثلة. وبما أنني لا أمثِّل الادعاء العام، وبالتالي لست في موقف محاكمة. والكاتب يقدم بالدرجة الأولى شهادة ملتزمة عن واقعه، فعلى كل واحد أن يجيب بضميره الأخلاقي ونزاهته الفكرية، وعندئذٍ ستبدو مرآة الحقيقة صقيلة لمن شاء، مضببة لمن شاء، أما أنا فلا أراها إلا مشروخة في الوقت الراهن، نرى فيها وجهًا لنا وآخر نبحث عنه، ولذا نستحق أن نعيش ونناضل ونفكر ونكتب ونحب ونأسى ونسعد، وإذا ذهبنا إلى حديقة — مثلًا — رأينا زهرة تينع غير بعيد عنها نمل سحقته قدم متغطرسة، وفوق كرسي جلست امرأة حزينة تأتي إلى هنا كل صباح لتطعم العصافير. تحط العصافير فتلتقط فتات الخبز من على رءوس أصابعها تخطفها، تستأنس بها قليلًا، وحين ينتهي الفتات تعود لطيرانها، وأعود أنا والمرأة إلى ... ماذا؟ لست أدري. ربما نسيت. لا أستطيع الجزم بأي يقين!

لمجد الغد

نعيش حاضرنا يتنازعنا الانشداد الثابت إلى ماضي الأجداد والجاذبية القوية نحو غد الأحفاد. الأول نعرفه — يظن كثيرنا ذلك — كبرنا في أحضانه وترعرعنا بخصاله وقيمه، وما نزال. والثاني ينافس سالفه أشد المنافسة بأسبقية الجديد وتحدي العمر الفتيِّ، يقتحم قلاع حاضرنا، نلمحه حينًا ونستشفه في غالب الأحيان. بينهما يوجد الوقت الحالي المنفلت دومًا، ولا ينبني وجوده الحقيقي إلا على درجة الوعي بالتوتر الحادِّ الناجم عن تجابُه الزمنين المذكورين، هو مشدود بينهما كالسهم بين القوس والوتر؛ فإن صوَّب جيدًا أصاب أو ارتد القوس إلى نحره، نحرنا نحن الذين نحيا حاضرًا نزعم أنه لنا من شدة تشبثنا الطبيعي بالحياة في قلبها ماضينا، بينا تأفل لمَعَت كبرق خُلب، وغد يتحدى حقًّا وزعمًا.

مناسبة هذه الديباجة احتفال المغرب — ككل عام — بذكرى جديدة لثورة الملك والشعب، المعلومة في الذاكرة الوطنية بتاريخ ٢٠ غشت ١٩٥٣م، والمنقوشة في نفوس المقاومة والوطنيين الخلَّص بصدق العزم وإرادة الحزم لتخليص المغرب من بين براثن المستعمر، واسترجاع سيادة البلاد بتحقيق استقلالها، كمدخل أول لتغيير حالها وبناء غدها. وهو احتفال ينضاف إلى مناسبات أخرى، وإن كان يُعدُّ أنصعها وأقواها دلالة في التعبير التلاحم المتين، الذي نسجته السياسة الوطنية المغربية بين الحاكم والشعب، اللذين يستمدان مصداقيتهما الوطنية والتاريخية من ثورة ذات خصائص معلومة، فجَّراها في وقت تاريخي حاسم دفع بالبلاد في الاتجاه المطلوب؛ فكان الحاكم (الملك) في الموقع المطلوب أيضًا، واتخذ القرار المناسب الذي لولاه لذهبت به رياح الأيام سدى، والشعب ترتاده القوى المؤهلة بصفوة الحركة الوطنية، أشعلا فتيل الثورة ضد الاستعمار، ليستحق بذلك اسمه ووجوده، والهوية التي ستزداد تجذرًا في حاضره ذاك ولاحقِ مستقبله.

أحسب أن فهم هذه الدلالة يعني الوعي بمركزية «ثورة الملك والشعب» في تاريخ المغرب الحديث التي تتعدى الحالة الوجدانية — وهي تلقائية محببة — إلى بلورة الميثاق الذي صاغه المغاربة؛ للتعبير عن تكافلهم ووحدة مصيرهم تجاه المستعمر من ناحية، ومع أنفسهم في الاتجاه الذي سيأخذون بعد ذلك من ناحية ثانية. ولقد بلغ هذا الإحساس والوعي مداه، كما تسلسل تباعًا في غير تعبير وصورة، لنقُل إن استقبال المغاربة لملكهم عائدًا من منفاه — هم الذين لم يفارقوه البتة؛ إذ رأوه حتى في القمر! — هو تأججه الدرامي الذي لم نشهد له مثيلًا بعد ذلك. وأتت الحقبة الأولى للاستقلال، بصرف النظر عن ملابساتها، تمثِّل معنًى آخر في سياقه. وعلينا أن نلاحظ بأن الاختلال الذي أربَك هذا السياق وقطع انتظامه إنما حصل نتيجة تخلي طرف عن الالتزام ببنود ميثاق له أوفاقه وشهوده ووثائقه المعلن منها والمضمر، وتدخُّل قوى دفعت إلى قطع لحمة الملك والشعب، وزجت بالمغرب عقودًا في غياهب الاستبداد والقمع على نقيض مثل الحرية والعدالة والكرامة، كافح من أجلها وما انقطع جيل بأكمله ودَينه على كل عنق.

إن هذه الثورة التي لا يتضخم معناها أو يخف إلا لدى الغرباء عن الحس الوطني والوعي التاريخي لزمنية محددة، لهي كذلك إحدى بدايات التعاقد المبرَم علنًا بين العرش والشعب لخوض معركة مشتركة، من أجل هدف نبيل وسامٍ يراد له أن يكون له ما بعده. وما نضال الوطنية والتقدُّمية المغربية في طرحها لأيديولوجية مطورة لسننها أو مغايرة، ذات مبادئ تحررية كاملة، إلا أحد عناوين البَعدية المطلوبة، برسم فعل التشارك الذي يقتضيه أي تعاقد ويوجب الوفاء ببنوده. ومن أبرز تلك العناوين؛ المطالبة بملكية دستورية تنقض ما كان سائدًا من نهج الحكم المطلق، وبمؤسسات تمثيلية لبلورة الإرادة الشعبية في كل المستويات والمجالات عبر انتخابات نزيهة. وثمة كثير من النماذج والتمثيلات الناطقة باسم الفئات المطالبة بالتغيير؛ أي بضرورة احترام الميثاق والتعاقد، وقد اجتزنا فورة الحماس وصرنا أمام واقع آخر، واقع حكم الاستقلال، وكيف ينبغي أن يكون، وبِيد مَن، وعلى هَدي أي خطة وسياسة؟ ما دمنا حقًّا متشاركين من البداية في «ثورة الملك والشعب».

لن نسترسل في سرد ما شهدته المراحل السابقة؛ فهذا اختصاص المؤرخين، ويتعدى حاجتنا في تبيُّن الوشائج التي كانت مُحكمة بين العرش والرعايا الأوفياء، وبقوتها أو هشاشتها ينسجم الوضع السياسي عامة أو يتفكك حدًّا مريعًا. لننظر بالأحرى إلى واقعنا الراهن، إلى ما يتشكَّل فيه من فسيفساء بكل الأنواع والألوان، وبما ينزع إليه من مزيد تغيُّر وتحوُّل في المستقبل المنظور. لنعتبر بالماضي، وكم نحن في حاجة لنستخلص منه بليغ

الدروس تقينا مغبَّة انكفاء بغيض إلى دهرٍ كبَّل أيدينا وقرائحنا؛ لكن تفتح في الوقت ذاته الأعين المُغمضة أو النفوس الساهية، وأخرى جاحدة على صفحات بِيض من كِتاب المغرب الحديث الذي دبَّجه الشهداء الأبرار بدمهم، وإرادة الوطنيين من كل سعيد بنضالهم. لنقُل — بعد هذا وذاك وهو بيت القصيد عندنا — بأن المناسبة التي ضمَّت الملك والشعب مرة أخرى في حضن واحد، ومثلها كل المواعيد الوطنية لتاريخنا، لَتحتاج إلى تجديد الحماس بها بجعلها أكثر من ذكرى، ووضعها في سياق المستقبل. أجل، فهي نقشت بحروف من ذهب مجد الأمس، بَيد أن قوتها ستصبح أعظم وإشعاعها أبهر عندما نجعل منها قضية يومنا، وبرنامج غدنا. في زمنٍ متحوِّل قلِق، مشحون بالأزمات، وفي زمن تلتهب فيه الحناجر لترسيخ أقوى للديمقراطية، وتتكاثر البرامج لرسم الخرائط المستقبلية لتنمية وإصلاح دائمين، وتطيب النفوس والجراح.

لإعادة الاعتبار للعمل السياسي

منذ وقت غير بعيد كان عموم الناس في مغربنا يعتبرون الخوض في شئون السياسة مَجلبة للنحس والتهلكة، وقرآننا الكريم يأمرنا بأن لا نلقي بأنفسنا إلى التهلكة، وهكذا تراهم يتجنبونها بالفعل ويشيحون عن أصحابها بالقول، حتى إن من بينهم من قذفهم بـ «مساخيط الوالدين». وفي رواية أخرى كان للسياسة في هذا البلد الأمين شان ومرشان، وذلك في وقت بعيد أيضًا، أيام كان رازحًا تحت الاستعمار الفرنسي، فسُمي رجالها فخارًا واعتبارًا بالوطنيين، وصارت كنايتها هي الوطنية؛ فكأن من لم يؤمن بها ويلتزم بخطها ليس مغربيًّا أي ليس وطنيًّا، هكذا لا تتحصل المغربية ببطاقة التعريف ولكن بالوطنية.

عانى الوطنيون بالطبع صنوفًا من القهر والعنت بين مطاردات وسجون وإقامة بالإجبار وفي المنافي، فضلًا عن العوز وضيق ذات اليد؛ فالقوم أيامها لا فكَّروا ولا حلموا بالمغانم، كنزهم وفداهم حب الوطن. وجاء الاستقلال فانزاحت على ما سمعنا وقليل مما رأينا سدف الظلام، خِلنا بعدها أن الأنوار ستعمُّ مختلف الأرجاء، والخير العميم سيطرق كل باب، حتى ظننا أننا سنعيش عيشة التنابل، ولم يكُ شيء من ذلك. قال لنا الغانمون الفالحون، وقد وضعوا اليد على الزرع والضرع ولم يُبقوا لابن امرأة من غير أرحامهم إلا ما يقيه مغبة الصرع، قالوا هذه سياستنا. وحين أوشكت المخمصة أن تودي بالفئة الناجية، نادى آخرون أعلون بالنفير أن «كلوه بقشوره». وعندئذٍ قرر المستضعفون في الأرض أن لا مناص من أن يشهروا على الملأ ضربًا آخر من السياسة، يسميه الماركسيون نقيض الأطروحة، وفي ديننا الحنيف هو القصاص الذي فيه حياةٌ لأولي الألباب.

يوم ولجت كلية الآداب في ستينيات القرن الماضي لم أكن أفهم عن السياسة إلا أثر ندبَين غائرَين تركهما جندي بخنجر بندقيته في ساقي وكعبي، وظللت أهرول بجرحي مع تلاميذ انتفاضة الدار البيضاء الشهيرة، ونحن نستغرب كيف تطاردنا قوة مسلحة لأننا

خرجنا في مظاهرة نطالب بحقوق مشروعة أو تافهة، لم أعد أذكر. لكن العهد لم يطل بي لأفهم بأنك في المغرب لا تحتاج إلى المصنفات في الأيديولوجيات ولا الانضمام إلى الأحزاب والنقابات لكي تصبح حيوانًا سياسيًّا، يكفيك أن تسمع شرطيًّا يُحمرِنك أو يُبهدلك وأنت مطأطئ الرأس لكي تصبح لينينيًّا في دقيقة، أو أن ترى كيف كان عمر بن جلون ينتقل بين شارع كاميل دي مولان — سكناه — وزنقة الجندي روش — جريدتنا — وهو يقهقه غير مبالٍ بأولئك الذين لاحقوا زمنًا لحمنا وكلماتنا. الظلم والاستبداد أكبر وأنجح مدرسة لتعلم السياسة بجرعات مريرة دفعة واحدة على الريق. أما إن كنت عرفت الصحفي المناضل عبد الله بوهلال، كما قابلته في مطلع السبعينيات بـ «المحرر» الأسبوعية؛ فستفهم قبل أن يرتد إليك طرفك، تراه يطل عليهم — هو والمرحوم الوديع الأسفي— من نافذته وعيونهم تثقبها بالحراب، وقبل أن يقوم أبا عبد الله بجولته الإنسانية المسائية في شارع الخامس يمر أولًا إلى بيت الوالدة لتقبيل يدها طبعًا، والأخص ليطمئن أن الجلباب البُني الخشن جاهز للملمات، هو ما يُفتقد في الليلة الظلماء وليس البدر ذاك البدر الذي لا سبيل إلى مغازلته في «الكوربيس» حين تكون العين قد غارت في الأحداق، والأمعاء تلفَت من المسغبة، والحرية يا لها براعم مأسورة في القيود، هكذا لم أكن محتاجًا سوى لتلك السيارة التي ستختطفني من حضن زوجتي في سبعينيات وارفة بالصبابة وذؤابات الشباب وتلقي بي في غيابة الجب لكي أصبح أخطر سياسي في قرارة عنادي، ولن أطالب بأي تعويض ينسيني أن كل من يولد ويعيش في وطن عليه أن يستحقه أو هو رقم في بطاقة التعريف فقط.

كان العمل السياسي في مغرب الاستقلال الأول يختصر في النضال والاعتقال واستئناف لا ينقطع من جانب، ومكر وقمع وتلفيق وتزوير إرادة الشعب في أحزاب وانتخابات ملفَّقة ونهب الثروة الوطنية والارتهان للقوَى الأجنبية، ومثله وأدهى منه قلناه في أوانه. وهي كذلك الآلاف بين طلاب وعمال وفلاحين ومأجورين من كل الفئات يؤمنون حقًّا بضرورة التغيير، بحقهم المشروع في الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، والنضال المستميت لتحقيق مطالبهم بقادة صادقين لا يلوكون أو يفرقعون الشعارات بل أجسادهم «ليوم كريهة وسداد ثغر» من جانب آخر. فأين نحن اليوم من كل ما مضى، وهل يكفي مهرجان للإنصاف والاعتراف لنعتبر أننا كنا نستحق زماننا، ولنغفر لجلادينا ونئِد ماضينا، ونقبر ذاكرتنا وننسى أننا شعب أصالته في أن يلتقي دائمًا بوجهه حين يذهب إلى حقيقة نضاله أبدًا يخوضه لا في أن يوهَب الكلمات، وبِيدٍ يقبض على صرة وبالثانية على قبض ريح؟!

لا بأس، لكن أين نحن الآن مما كان؟ وهل يُعقل أن نخطئ الطريق إلى وجهنا نستبدله بوجهة الضلال والبهتان. لست لا ساذجًا ولا مغفلًا لأومن بأن السياسة هي السبيل إلى

اليقين؛ فإني قرأت عند جهابذة كما لمست عن كثب أنها فن المكر، وأخلاقها مخصوصة بها أي ليست أخلاق مُثل، وهدفها الحكم والسيطرة والمال والجاه وتطويع الأنام، ولا عجب من ترويج نقيض هذا الكلام من حين إلى آخر لتدجين الدهماء وهدهدة بعض الأحلام. أسجل هذا وأنا أُدينه بشدة. يُدينه معي خلق كثير، كلٌّ بأسلوبه وعلى طريقته، خاصة الذين لا يقبلون أن تتحول السياسة أو فعلها أو ممارستها إلى وسيلة لقضاء المآرب وتسفه كأداة لتربية المواطن وتوعيته بحقوقه وواجباته كافة. ولا يقبلون جعلها مضمارًا للسباق على المكاسب أو تسعير المنازع والنعرات بأي وازع كان. وهؤلاء الناس لا ينشدون المدينة الفاضلة وفي الآن عينِه تعاف نفوسهم البيئة الملوثة بشعارات وبرامج ملفَّقة وأخرى مزورة منسجمة مع لحظة استغفال الجمهور، وابتزاز صوته الانتخابي وسرقة مستقبله. وتزوُّر العين عمن أقبل عليك أمس ويشيح عنك اليوم. عن الذين يُشعِرون مواطنيهم بالخذلان وهم يقدِّمون لهم أنصاف الحلول ويمضون في طلب مراجعة التركة حتى الفقدان، والذين ... كم سأعُد؟!

مغاربة، لكن من أي طينة؟!

ذكرى استقلال المغرب وأمجاده الوطنية ليست كلها مناسبة للفرح وأخذ العبرة والحماس لانطلاقة أخرى نحو المستقبل؛ هي ذكرى لا واحدة ولا موحَّدة، أو إنها في عرف البعض لا ينبغي أن تكون كذلك، وعندهم أنها ينبغي أن تتعرض للتهشيم والتكسير حتى تبعد عنها مزية الإجماع الوطني الضامن لوحدة الأمة ومهماز بقائها واستقرارها. تُرانا نحن الذين تغنَّينا ببلادنا وأسكتنا احتجاجنا وبلسمنا جراحنا وقلنا باسم الله نبدأ ونعيد الكرة أيها الوطن، إنما كنا مخطئين؛ لأن هناك من يريد أن يخطئنا في حبنا، ويفصلنا عن ديارنا، ويسلخنا من تاريخنا، ويطفئ نور الله الذي في قلوبنا بأفواه وأية أفواه؟!

لسنا سذَّجًا، أنا وعشيرتي الأقربون؛ لأن نتصور أن السماء التي تظلل الناس ستكون نفسها الأرض التي تأويهم، فمذ وُلدنا تحت شمس هذا البلد وتخبَّطنا صغارًا، وحتى كبارًا في وَحله تعلمنا أن هناك من ينازعنا رغيفنا ويستكثر علينا الخطوة في الطريق والاستنشاق من الهواء، والزهرة التي كانت مبذولة صارت مكتوفة الأيدي خلف الأسوار، ولم نبال — رغم كل شيء — بالحيف في تقسيم الأرزاق، وقبلها زهقت أرواح وقُطعت أعناق، واليوم وقد بلغ السيل الزبى، وإذ نُحس الموسَى تصل إلى العظم؛ لم يبق لنا إلا أن ننطق بالحق كل الحق. لا ندَّعي امتلاك الحقيقة؛ فهي للجميع بقدرِ ما يُسهم في صنعها وينمِّيها، يرسخ عمادها ويدرأ عنها صدأ الأيام تصقل في مرآة زمن؛ إذ يتقدم في التجدد والتطور لا ينكر سالف عهده — على هواه — كما لا يحق لأحد — إلا غصبًا وبهتانًا — أن يمحو معناها ومبناها، على الأقل ما دمنا نحن أحياء قد صُغناها وفي دمنا تجري أو دونها نموت.

فبعد ما رأيتُ، بعد ما سمعتُ وأسمع كل يوم بما لم يعفَّ عنه لسان كان ينبغي أن يبقى زعافه في جوف صاحبه كيلا تُرى الحية وهي تسعى في واضحة النهار، قلت لا بدَّ أنذر عشيرتي الأقربين، وهم ليسوا أهلي أو صَحبي كلهم، أو حزبي فقط، فجميعهم

بنو وطني لا أُفاضِل بينهم إلا بقربى هذا البلد الغالي على من افتداه وأخلَص له ويتنزه لسانه عن إيذاء أهله وسكانه الجديرين به، لا المشدودين إلى تاريخ العناكب بخيوط أوهَى من خيط العنكبوت. وإني أمام ملك البلاد، سمعته في خطاب ١٦نُوَنبر التاريخي، ومنه عبارات دُرر جدير تقييدها كما ينبغي؛ فهي تقرُّ حقائق، وتنبِّه السادرين في غيِّهم علَّهم يرجعون إلى سواء السبيل، لا بأس أن نرجع إليها، ومنها: «سبيلنا — الذي لا رجعة فيه — تعزيز المواطنة الكاملة لكافة المغاربة الذين أعتبرهم سواسية حيثما كانوا، وكيفما كانت وضعيتهم الاجتماعية. لا فرق بين فرد وآخر، إلا بقدر ما يجسِّده من وطنية صادقة، ونهوض بالمسئولية، وتمثيل مشرِّف لبلدنا الذي نعتز بالانتماء إليه، والعمل الجماعي من أجل صيانة وحدته وتوطيد عزته.» هذا السواء يريد قوم أن يواصلوا تنكُّبه، وقوم أن يضربوا به عرض الحائط، لا يهز العروش وإنما كراسيهم المخلخلة وبطونهم المكورة، وحقوقًا يدَّعونها ما أنزل الله بها من سلطان. وآخرون — لو يدرون — يزرعون في الأرض الإحن ويدفعوننا دفعًا صوب الفتن، وإلى ما لا منجاة منه— والعياذ بالله — عندهم غير نار حرب توقد.

فهل في هذا يريد دعاة النعرات العرقية واللغوية بالمغرب أن يُوقعونا؟ وهل انتفت عندهم الحدود فما باتوا يُميِّزون بين حق الرأي وحرية التعبير، وبين «حق» العدمية والإلغاء المشين. وليعلم القاصي والداني أن هناك من رفع اليوم — وفي عُقر دارنا — الدعوة إلى طردنا منه وتهجير عقيدتنا وتعويضنا وإياها بما لا يعلمه إلا الجاهلون المارقون. فالعرب يا سادة يا كرام — في منطق هؤلاء — ليسوا أكثر من غزاة دخلاء، هم — نحن — وإسلامهم القابلان معًا للكنْس والإجلاء. قبل سنوات وقف شخص غِر أمام بناية البرلمان يحمل يافطة كتب عليها بعنوان عربي مبين: «نطالب بطرد العرب من المغرب». مرَّ به مواطنون فعلَّقوا إنه معتوه، وتساءل عقلاء عن مَعاد الضمير في «نطالب»، ودفن كثير منا رءوسهم في الرمال. وعند إعداد بيان ختامي لأحد مؤتمرات اتحاد كتَّاب المغرب — في سالف العصر والأوان— ارتفع صوت نشاز «يطالب» بحذف النسبة العربية للاتحاد، وتصدَّى وقتها لشطط كهذا رجال نهلوا من معين عروبتنا ومغربنا وقالوا: «إن شيئًا من هذا لا يمكن أن يحدث إلا بالمرور على أجسادنا!» وذاكرة التاريخ حية لم تمت. أما اليوم فلسان من العنصرية والتفرقة العرقية، بل والتحريض على الكراهية وبث الفرقة الوطنية واللغوية، وصولًا إلى مسعى نفي العقيدة في سعار، والناس عندنا إما لاهون أو لا مبالون، أو هم بالصمت متواطئون، ولا صمت في ما يمكن أن تغرق به السفينة، وخطاب الدعوة

إلى تدبير الخلاف أو الاختلاف، واحترام خطاب التعددية تماشيًا مع مقتضيات (كذا) هو تهرُّب من تحمل مسئولية لا تقبل التأجيل.

إن صياغة الاصطلاحات، والتنويع في «الأسلبة» الأيديولوجية لا ينفي أن هناك — في النهاية — مضمونًا أيديولوجيًّا ودعاة أمس كانوا خلف الحجب والخنادق، واليوم يعتبرون باسم حقوق معينة وذاكرة مثقوبة، أضف إليها تمائم الأوهام، أن المغرب مشاع وسواهم من عرب وإسلام سقط متاع. ومن عجب لا يقولون شيئًا عن الأعاجم، وكيف أن لغة الضاد محقورة في وطنهم «الأصلي»، ولا تأخذهم الغيرة على من وحَّدهم وصنع منهم أمة وأخرجهم من الظلمات إلى النور. فهل تعيش الأوطان والمجتمعات بالتنكر لتاريخها وتسفيه ثوابته، بتعريضها لعبث الهوى ومعاول المغرضين باسم تجديد الهويات ووعي القوميات وما شاكَل، أم أجيالنا الصاعدة والقادمة ستعرف كيف تقيم التوازن المناسب بين ركائز التاريخ ومطامح الغد بما يلبي حاجة الإنسان المواطن إلى التماهي مع ذاته في الوقت الذي ينتسب إلى وطنه، ويمتد في الأفق الإنساني الأوسع؟ أكثر من سؤال كبير مفتوح، وهو لا شك جوهر صراع ندخل فيه، والأمل أن يأخذ مظهرًا ثقافيًّا وسياسيًّا ديمقراطيًّا، لا أشكال تعنت وتطرف وفتن، كهذه المهلكة في بقاع من العالم شتى.

دعاة الزور و«لبن العصفور»!

بات معلومًا لدى الخاص والعام — إلا عند الجاهل والعنيد — خصائص ومزايا المناخ السياسي الجديد الذي ينتقل إليه المغرب منذ سنوات، ويزداد تحدُّدًا وضبطًا سنة بعد أخرى بفعل عوامل وطنية متضافرة، وأخرى خارجية مؤثرة. وواضح لكل ذي نظر وبصيرة ما أثمره هذا المناخ من انفتاح وانفراج على أكثر من صعيد، نعلم جميعًا أن التسويات والتراضيات المستحبة المنضوية تحت العنوان الدالِّ لحقوق الإنسان لتُعد إحدى تجلياته الأنضج والأبهى. جدير بالتذكير أن هذه الوضعية الموسومة بالجدَّة والتحوُّل ذات حلقات متواشجة، في سلسلة ما تنفكُّ تتطور وتأخذ سمات التغيير الذي يعمل الفاعلون الكبار في المجتمع على إحداثه وإنضاج صيرورته بكل الوسائل الناجحة والممكنة.

هل نحتاج إلى تعيين أسماء هذه الحلقات أو سرد الأمثلة — الصالحة والطالحة — للتمثيل على ما خاضت فيه أكثر من جهة، منها الأصيل والنزيل وحتى الدخيل، كلٌّ — حسب العبارة التقليدية — أدلى ويُدلي بدلوه في بئر التحوُّل ومجرى الانتقال يغرف كما يشاء ليسقي أو يغرق، بعد ذلك، كما يشاء أو لا. وإن اللافت للنظر حقًّا أنه إثر انفتاح القمقم خرجت الملائكة والعفاريت، وحتى الخراتيت صوَّحت وإنها لتصيح. والنعام الذي كان رأسه في الرمال أخرجه يستأسد حاملًا سيوفًا من خشب، يحسب أنه سيسوس الخلق وذاكرتنا معه كما يسوق الرعاةُ الأنعام. ليست هذه لهجة تأسٍّ ولا للتشفي؛ فأنا أعتبر أننا محظوظون حقًّا لأننا ما زلنا ننعَم بالحياة والصبر لنرى تقلُّب الأيام والسجلات تفتح والأصوات والأقلام تتبارى لتخطَّ — بمداد الحقيقة تارة والزور تارات — ما جرى ويجري في تاريخ هذا البلد الأمين. أوَلا ترون كيف أن الشجاعة أضحت مواتية والألسنة متدلية تخوض في الصافي والعكِر؛ لينسج أمام الجميع كتاب المغرب الذي طالما افتقد كُتَّابه ومؤرخيه.

غير أنه، وقد انفض أول الزحام وأصبح بالإمكان استعادة هدوء العقل بعد فورة الحماس المصاحبة عادة لكل مثير؛ فإن علينا أن نشترك جميعًا في الدعوة إلى عودة الأمور إلى نصابها، أي مكانها الصحيح الذي يبدو أنها حادت عنه في غمرة الطريقة الفولكلورية التي استخدم بها من لدن البعض حق حرية التعبير الذي لا جدال فيه مبدئيًّا وأولًا. ولكون الذين تعاطَوا مع الواقع الجديد في تحوُّلاته المتواصلة ليسوا كلهم مؤهلين سواء لإنجاز الحفور الضرورية للماضي السابق عليه، أو لمساءلته في حد ذاته. طبعًا ليس طرق باب السياسي والمجتمعي والثقافي — أيضًا — حكرًا على فئة دون أخرى ولا على جيل دون جيل، شأنها شأن اختيارات البحث والتأويل في مناخ يتَّسم بالتعددية، وينحو أكثر فأكثر نحو حرية التعبير وحق الاختلاف. إنما تعالَوا نتساءل بما أن التاريخ ذاكرة جماعية موقرة وموثقة وتحتاج دائمًا إلى التوثيق صونًا لها من النسيان والتدليس، هل يحق لأي عابر سبيل أن يتصدَّى لمهمة خطيرة كهذه بسَمتِ التبجح وحده، وعُدته سلاح المحو وقلب الحقائق وخلط المفاهيم وتشبيك الشعارات بطريقة الحواة؛ لتقديم أي شهادة مزعومة عن واقع كان، وآخر في طور الكينونة. نعم، يحب الناس الإثارة وينجذبون إلى الفضائحي، وعندنا — كما عند غيرنا — إعلام يغذي هذين الحافزَين — في أخفِّ تسمية — ويتعيَّش بهما حدَّ الرخص والدجل المستخِف بالعقول وتبخيس الناس دون درجة البشر، في موجة غوغائية فوق الغثيان، غير أن المبادئ الوطنية والقيم النضالية والوقائع الدامغة والمحطات الحاسمة — في تاريخ شعب ومسيرة أمة في آيات مجدها أو حتى في منحنيات انكسارها — لا وليست قابلة للعبث والتقشير بخفة كما يقشر اللب والفستق، وإلا نصبح كلنا — من داخلنا — عرضة للاستباحة.

نظن أن مؤرخِي هذا البلد ومفكريه وكتَّابه وإعلاميِّيه ومناضِليه، وعمومًا حراس وحماة ضميره الوطني، هؤلاء وغيرهم من الجنود المجهولين، مدعوُّون إلى الانخراط بعزيمة أمضى في تحصين مرحلة التحوُّل التي يعيشها — ما همَّت عثراتها وسلبياتها، فهي جزء منها — وبما أن الذاكرة التاريخية للشعوب مرآة تاريخها ولسان تراثها ووعاء بعض هويتها بحكم ما جرى وتأسس وأُرسِي؛ فإن العمل ينبغي أن ينصبَّ على هذه الذاكرة إما لتجميع شتاتها، أو لكشف خباياها، أو للتعريف بها على الوجه الصحيح الذي يكفل تعليم الأجيال ويقوي عضد الأمة. فهل يحتاج الوعي الوطني لكي يأخذ مجراه على النحو المطلوب والسنن المستجد، وهل يحتاج مطلب النهضة ومقصدها اللذان ليس منهما فكاك وإن طال السفر؛ أو يحتاجان إلى صدور مراسيم أو قرارات رسمية كيفما بلغت وجاهتها

ورجاحتها، ليعتبرهما الرعيل الفكري والسياسي المناضل بإخلاص جبهة مفتوحة يعتبر النزال وغاية النصر فيها محكًّا لاختبار المبادئ والمشاريع، ناهيك عن النوايا. أكيد أن هنالك فرسانًا في الحلبة — ولا بأس إذا وُصفوا بالدونكيخوطية والمثالية — ولكن ما نعنيه هو الجيش العرمرم لا بد يحسم في المعركة. إنها خطوة أولى إذ يتم بها ضبط حقائق الماضي، على الأقل في معالمها الكبرى، تُعدُّ خطوة ثانية في تشكيل المرآة الناصعة للحاضر، وهو يتحوَّل، ينظر فيها الذين يريدون نحته على شاكلة ملاحهم المشوهة أو المزورة، فينفضح زورهم توًّا. في مرحلة التناوب التوافقي رفعت الحركة التقدمية شعار وجود جيوب لمقاومة التغيير، وكانت محقة بلا جدال. واليوم لعله يوجد ما هو أعتى حين يقتحم معركة التغيير في بلادنا بصفاقة مذهلة أغرار ووصوليون ونَعرويون وظلاميون يطلون المنابر بجميع الأصباغ والعناوين، يحملون أسماءنا ويدَّعون صفاتنا، ويتسللون كذلك ليلًا إلى أحلامنا. في كل الحقول، أولاد الزور — هؤلاء — يتناسلون، ولا تعجبوا إذا غدًا قالوا سنجلب لكم، لغَدِكم «لبن العصفور» — طبعًا ليس المراد رواية الكاتب المصري يوسف القعيد، بالعنوان نفسه — أو ما نُسميه على الطريقة المغربية «حليب الغولة» تأتي به إن أردت أن أحكي لك الحكاية، وأنا بدأتها بلا حليبهم، وليكملها كل واحد من رأسه أو ليحلب العصفور، كما يدَّعون!

الوطنية أولًا، والمواطنة دائمًا

لا يسع المرء إلا أن يغتبط لجوِّ التعبئة الذي يسود أوساطًا مختلفة في المغرب، تتحمس لمناصرة جملة مبادئ، والدفاع عن ثوابت وما في حكمها للشخصية المغربية؛ دستورية وحقوقية. دليل وعي سياسي لا يقتصر على نشاط الأحزاب والتزامها بالتوعية، بقدر ما هو علامة أخرى على نضج يختمر في نفوس وعقول الجيل الجديد الذي لم تعرُكه مِحَن الماضي وتجاربه التي بها شُيد مغرب اليوم. وفي الجملة لنا أن نتفاءل بهذا الجو ونعتبره بادرة خير من قِبل من حسبناهم من النُّوَّم، وليس لأحد الحق أن يرتاب من هذه الناحية، خاصة حين يصدر الخطاب عن نخبة تكون قد حسبت حساب كل شيء، لنفترض أن كلامنا واحد، بحكم صدوره عن شخص ينتمي بالضرورة إلى الرأي العام.

والحق أن وسواسًا داخَلني وأنا أقرأ وأسمع نخبًا وأناسًا يتنادَون للدفاع والتعبئة باسم المواطنة، والوسواس الخناس، والعياذ بالله، يزرع الشك ويفسد اليقين حتى في ما قد يظهر للبعض من باب المسلمات والبداهة. آية ذلك أني حين لُذت بصديقي أديب رباطي وجدته كذلك في حَيرة من أمره مما حزب. وهو كما أعرفه مستغنٍ عن أمور شتى في هذه الدنيا، ومنها أن يظل غفلًا، غير متعصب لشيء جدًّا أو متطرف فيه، اهتداءً بأسلافه الذين قطنوا «بوقرون» و«سانية الطالبة رقية» في رباط الفتح الفانية. سألته: ما ترى فيما نرى؟ فأجاب بمنهجه «اللولبي»: «وهل ثمة حقًّا ما يُرى؟» قبل أن يجيب باصطلاح حديث على غرار النقاد الجدد: «هناك مشكل مقروئية»، وكان يعني النص المشاع بين الناس يطلب مشايعتهم دَرءًا لتلك المفسدة. وعندي أنه قبل ذلك مشكل مرجعية، بما تتضمنه من عناصر المرسل والمرسل إليه والرسالة في مستوى البِنية السطحية فقط، قبل الانتقال إلى «قاع» الخابية.

أزعم أنه لا يجوز لأحد أن يعطي الدروس لأحد ويوجه النقد بأي لهجة إذا كان هو نفسه أو ثقافته أو دوافعه عاجزًا عن تنكُّب خطأ المنتقَدين؛ هؤلاء يريدون أن يضربوا صفحًا بثوابت شعب فيما توافق عليه من نواحٍ معينة، نظام الحكم في قلبها، بناءً على تراث وحركية سياسية ونضالية هي جزء من تاريخ هذا الشعب، ما له وما عليه. والمنتقِدون أنفسهم يرتكبون الجريرة ذاتها حين يقفزون على حقائق جهيرة في تاريخ المغرب يسمونها عرَضًا مكتسبات، يقومون بعملية مسح لا تقل خطورة واستفزازًا عن الدعاوى المتمادية موضع التشهير. إن المرجعية الصحيحة في هذه النازلة — بعناصرها المذكورة — والتي يحتاج كل حصيف ومَن ينصِّب نفسه مرسلًا جديدًا في سياق الرغبة لتوجيه الرأي العام والتصدي لأطروحات المتربصين بثوابت الإجماع الوطني، لا بدَّ له في شروط الصدقية والنزاهة الفكرية الدنيا، أن يتخذ الوطنية المرجع الأم في مقاربة الموضوع إذا كان يتوخى حقًّا تعبئة الأمة لصَون حقها والدفاع عن مشروعية تاريخها (إجماعها). وللتذكير — فقط — فالوطنية ليست صفة للوطن وحسب، ولكنها دلالة — محور دلالي كبير — معبرة عن حقل دلالي أكبر ارتسمت فيه وتفاعلت وتبلورت بالأدوات المادية مع القيم الرُّوحية والفكرية والشعورية التي صاغت وضع وشخصية الوطنية المغربية عنوان يقظة شعب وانتباهه لمعضلة تخلُّفه وحتمية السعي للتقدُّم، فتجديد بناء ذاته، ومواجهته للمستعمر، واندراجه في معادلة «ثورة الملك الشعب» ومنها إلى المعادلات اللاحقة، يمينًا ويسارًا.

أما المواطنة فهي وضع والتزامات أخرى تالية ومعضدة، وهي — إن اقتضى التذكير — صيغة تنتمي إلى حقل الثقافة الحقوقية والسياسية والدستورية الغربية، وهي تصوغ الشروط والعناصر التي بموجَبها يشارك الأفراد في الشئون العامة، منذ الإغريق، وحديثًا — خاصة — باعتماد الحقوق السياسية التي تختص بتنظيم المجتمع، وتقوم على أساس السيادة الوطنية. وستتكرس المناداة بها في تصريح حقوق الإنسان والمواطن للثورة الفرنسية (١٧٨٩م). ولا جدال في أن كل الشعوب في العصر الحديث عملت وناضلت، وكافحت لاسترجاع حريتها المسلوبة، كما بينها من يواصل النضال من أجل التوفر على جميع القدرات والخصائص الفعلية للمواطنة، والمغرب من هذه البلدان، والوطنية المغربية هي التي وضعته على نهج تحقيق مواطنة أفراده، وأيديولوجيتها المتعددة الروافد، ونضالات الأحزاب الوطنية، الديمقراطية النقابية، وقوى الثقافة والتنوير الحديث كأنوية للمجتمع المدني البِكر فالمتطور، والتضحيات الجسام؛ كله قام ويقوم بصنع قالب المواطنة الجديدة ليصبَّ في القالب التاريخي للوطنية التاريخية الخصوصية، هذه التي كان عليها في حقبة

معلومة أن تواجه «المواطنة الغربية» صاحبة إعلان حقوق الإنسان، بعد أن لم تتورع عن دفع جيوشها في جغرافية الإمبراطورية الاستعمارية تتحكم في الرقاب وتنهب الثروات.

حسنًا إذ يلتقي الماضي بالحاضر في لحظة صيرورة تعيد صياغة الوجدان الوطني، وتزرع روحًا جديدة في مآل اليباس والتلاشي، وما همَّ الجحود والمحو الأعمى وعدم ترتيب الأولويات ولبس المفاهيم بما يورث النسيان، وحتى خلط الأوراق بُغية تسوية أي شيء بكل شيء؛ سنتسامح مع هذا كله وما في ضربه ما دام يجمح ويصهل بذلك الصوت الوطني الحار الذي كم بِتنا نفتقده في جموح أنانياتنا واسترخاصنا لكثير من القيم الوطنية ورموز السيادة. على أن أي وعيٍ، ويقظة ضمير، وموقف إخلاص ليس رهنًا بالظرف العابر بل بامتحان الزمن وديمومة اليقظة، كما أنها خصال ومبادرات تظل في حدود المعنوي، وحبذا لو عبَّر كل واحد عمليًّا عن حماسه لمقومات هذا الوطن من موقعه وبالأدوات الممكنة بين يديه، وهو ما لا يتأتى إلا بالسباحة في المياه العميقة والصافية للوطنية.

التنمية كمَهمة نهضوية

هي أسابيع معدودة وتكون خمسون سنة قد مضت على استقلال المغرب، وانتقاله إلى مراحل البناء الذاتي بتثبيت السيادة على أسس مكافحة أشكال التخلُّف وتحقيق النمو الاقتصادي والاجتماعي والتقدم التعليمي والتربوي، بما يؤهل مجتمعًا جديدًا يتغلب على مشاكله ويأخذ تدريجيًّا الموقع المناسب في عالم لا يعترف إلا بالتطور والتحديث. معلوم أن العوامل والملابسات السياسية هيمنَت على حقبة الاستقلال الأولى، ووسمتها بطابعها الانتقالي المركب، لكنها لم تعدم خططًا أولى للإصلاح الاقتصادي من منظور يعيد التحكم في الثروة الوطنية، ويضع البلاد على سكة معالجة المشاكل المزمنة، ويحقق الحاجات الأولى للمواطن، ومثله مما هو من المهام المستعجلة لحكومات الاستقلال الوطني الأولى.

وقد عرف المغرب، على غرار بلدان عربية و«عالمثالثية» أخرى، ضروبًا من التشابك والتوتر والجدل — كما نشاء — بين ما هو أيديولوجي-سياسي، وما طينته اقتصادية تقنية في الخطط الموضوعة لتهيئة أوضاع ما بعد الاستقلال، ونجم عن ذلك إما تغليب لمنظور أيديولوجي عنيد، وبإسقاط أطروحات نظرية أو خارجية على بيئات إنتاجية وذات مؤهلات خصوصية، أو تغليب الخطاطات التقنية بحسابات ومعادلات لااجتماعية، هي ذاتها محكومة باشتراطات سياسية تواجه أخرى مناهضة لها، تحمل بدائلها الخاصة. ونظرًا لانعدام الديمقراطية، وغياب مناخ الحرية وحقوق الإنسان، وانتفاء دولة الحق القانون إلا في حدود شكلية؛ فإن العنف — أي التسلط — والهيمنة من أعلى، واستخدام القمع المادي والسياسي، مثَّل الأداة الغالبة في طرح وفرض المشاريع المسماة تنموية وإصلاحية، تلك المنسجمة بداهة مع مصالح طبقة متحكمة وفئات منتفعة، في الداخل والخارج على السواء.

لكن، وسواء تعلق الأمر بالمستغِلين أو المستغَلين، باليمين ومحافظيه وليبراليه، وباليسار وتقدمييه واشتراكييه فماركسييه، أحسب أن الصراع في الحقب الموالية للاستقلال تنازعه قطبان؛ واحد مادي نهَّازي لاحتكار مصادر الثروة الوطنية بكل الوسائل المتاحة واللامشروعة معًا، والثاني أيديولوجي متحزِّب في حالة تربص للإجهاز، ويبسط في الوقت نفسه أدبياته لتحقيق الإصلاح الاقتصادي. في الموقعين كليهما تغلبت التصورات الاختزالية والخطط التكتيكية ذات البعد الواحد والمقاصد المباشرة الظرفية. بعبارة أخرى عدمنا في الحالتين — ولدى المتحكمين على الخصوص — استراتيجية من قبيل رؤية شمولية لا تنظر في حدِّ أرنبة أنفها وأبعد من المكاسب الظرفية. من اللافت للنظر أن أغلب مشاريع الإصلاح في العالم العربي — والمغرب منه — وأكثرها تكاملًا ونمذجة — لندع المضمون جانبًا الآن — هي تلك التي تبلورت في الفترات السابقة على الاستقلال، وشهدنا معها منذ نهايات القرن ١٩ وحتى منتصف الماضي، اجتهادات وتمثيلات فكرية قوية مقصدها تحقيق النهضة بمعابر مختلفة. وقد رفدت التنظيمات السياسية من هذه الحركات الفكرية واعتمدت في أحيان كثيرة على سناداتها، ووسمت في المحصلة الآفاق التي نعرف في المستوَيين كليهما.

خمسون سنة هي عمر استقلال المغرب، وللجميع أن ينخرط في العدِّ والتقويم والجرد واستخلاص العبر؛ فهي من غير شك مهمة مطلوبة ووطنية، تعني رجال السياسة والأعمال وأهل الفكر إلى حدٍّ بعيد. بَيدَ أن مرور نصف قرن هذا لا يشفي الغليل؛ ففي مرآته تبدو الشقة واسعة بين هذه الأطراف، وخاصة بين مكوني الدولة والمجتمع، في صيغتهما الكلية. ليس بوسعنا تفصيل القول في ما هو بمثابة ظاهرة تفاعلية واختبارية؛ حسبنا التنبيه إلى أن جلَّ، بل كلَّ مشاريع وخطط التنمية التي طرحت في بلادنا في إهابها الرسمي التشريعي هي ذات مصدر وتوجه دولتي. والمشكل يكمن في افتقادها تمثيلية الأطراف الفاعلة في المجتمع بتعدد التزاماتها ومصالحها. وإذا كان من الصعب تَوفر أي مشروع يحظى بالإجماع؛ فإن الحوار والتشاور والإنصات المتبادل — عبر مؤسسات منظمة — من شأنه خلق علاقة حيوية تنزع عقم البعد الواحد، وتسمح بإمكان تبلور الرؤية التي تتعدى تأثيث المشهد السياسي، وامتصاص الحنق الاجتماعي إلى إبداع طموح ورغبة نهضة وطنية شاملة وحفز المؤهَّلين من كل جهة لرسم معالمها واستشراف آفاقها.

لا يتم تصحيح اعوجاج هذ المسار بالنقد وحده، حين يتعالى وينعزل في طرف سلبي، ولا بمواقف التعالم، ما يتخذ منها تحليلات نظرية تبدو كأنها موضوعة لغاية الفكر وحده، ولا بالإحالة إلى الأمثلة الغائبة في التاريخ والثقافات النهضوية ونماذج النمو والتقدم. إن هذه التدخلات تحتاج إلى الاندراج في سياق حركة فكرية عامة، وأن تخوض غمار عملية

تنويرية كلية من مهمة المفكرين والمبدعين، أجل المثقفين المتخصصين، ريادتها دائمًا، ومن الخطل تمامًا انتظار أي جهة رسمية أو ذات صبغة مؤسسية لإطلاق هذه العملية وشحنها بطاقة الخلق والتجديد. وعلى الرغم من المتطلبات الملحَّة في مجال مماثل، والدعوات الموجهة للدولة — بما تملكه من إمكانيات — لاعتبار المكوِّن الثقافي عمادًا في التنمية الوطنية، إلا أن المجتمع الثقافي، هيئاتٍ ونخبًا وأفرادًا متوحدين، مدعوٌّ في حاضره، صنيعه في ماضيه، إلى قدح زناد الاقتراح والاجتهاد في صيغة حركة نهضوية تنويرية، قد تلتقي مع مشاريع وأنهُج التنمية المختطة أو تختلف، ولكنها في الأحوال كلها ستعبِّر عن حضور فاعل في لحظة تاريخية معينة، وتعلي من مكانة الفكر والإبداع على صعيد القيم التي يدافع عنها وعي متقدم رائد للنهضة دائمًا، وحارث لحقولها الشاسعة؛ إنه في زعمنا الوعي الأنضج للتنمية، القادر على جعلها اختيار أمة، وطريق مستقبل، وملتقى الإرادات والعزائم المخلصة.

يوم سِرنا خِفافًا ... كالملائكة!

وقد حلَّت ذكرى انطلاق المسيرة الخضراء في عامها هذا (٢٠٠٤م) لم أسهُ عنها قط. تركتها تحل وتمضي أمامي عمدًا. هل لأن جذوة الحماس لكل ما هو وطني انطفأت، وباتت تقليعة من سقط متاع التاريخ، أم لأن الفرح والحزن معًا يحتاجان إلى طول المكابدة ليَينع الحبق أو البقول كما ينبغي على حافة أي ذكرى؟ أكاد أقول سيان؛ رغم أن في الجوف نارًا لم تبترد أبدًا، هيهات، وأرواح الألى كما أطياف الأحبة قوس مشدود بين السيف والقلم. لو تسرَّعت لصرت احتفاليًّا أو موظفًا في أرشيف الذكريات، سمانها والعجاف، وأنا أميل إلى أن نترك الحياة تنضج بهدوء، والموت يقدم بأهله وأوصابه، فلا شيء مثل العتاقة. أوه، لكم أمقت الذين يتسابقون إلى تبجيل العلامات، ومقايضة الوفاء بالمسكوكات/المتسابقون إلى المراثي كذباب النفايات/جوارح هم/في سمت بشر/عندما تتفتح شهيتهم/تتهيأ النسور للانقضاض/من علٍ تقضم اللحم والعظم/الأحياء قبل أن يموتوا/والموتى، أيضًا، بعد الرحيل. اليوم مات صديقي/صباحًا لفظ أنفاسه/وأمس قرأت نعيه في جريدة/صورته في مربع/واسم آخر لغيره/ سرقوه، كالعادة، من دفتر الأحزان.

أستطيع أن أحتفي الآن بالكلام، آخذه إليَّ بوداعة مثل يدٍ بكر تتلمس الطريق إلى شفة الحبيب. فلقد مرت القوافل، وصخب الطبل والغيطة، وحتى أقدس شعار يمكن أن يصبح أبخس من حذاء مطاط، فيا لرخص العمر، من بخَّسنا لهذا الحد، قزَّمنا، قمَّأنا، كمَّمنا عمرًا ثم أطلقَنا غبارًا صار عالقًا بالأعتاب، يلعق ندمه ويستسقي ما لن يعود من فوات لأنه ببساطة ... مات. أستطيع أن أجلس ونفسي ممتلئة بغبطة الحكمة التي تواتي من لم يخسر أبدًا؛ لأنه لم يسعَ أبدًا سوى إلى ربح نفسه، وعدا ذلك قبضُ ريح. ولقد جرَّبنا واعتدنا أن نلملم بقايا أعضائنا بين نهايات الطريق وشظايا الحريق على لفحِه نُولِم لحم تاريخنا للعابرين والمرتدين وحتى أعداؤنا ندير لهم الخد الأيسر؛ لأننا ببساطة نبدو كأننا

خسرنا كل شيء وما همَّ أن لا نبالي. ماذا تكون الذكرى عندئذٍ؟ رُفاتًا تلبسه صورة شعرية؛ لأننا انتهينا إلى أن أبلغ استعارة في البلاغة تفضي حتمًا إلى الزوال الذي نسميه الذكرى، لا بأس إذ نبجلها أويقات، ونأتي بخطباء مأجورين لينفخوا في قربة زمن مثقوب، والجوقة مع الجمهور، سواء في الشاشة أو في السوق، معبأة للتصفيق خلال لحظات، أو لم تتعلم أن تتدجن مذ سنوات، وسنوات؟!

أعترف أنها هواجسي المشحونة تفيض على حروفي؛ لأنني ضد تسليع الشعور الوطني، وإن بدت نبرتي منذِرة فمن أجل الاحتفاظ بنزر من شميم الوردة، عساها تفوح فيتعطر جو لا بدَّ نحن الذين ما زال ينبض فينا ذلك العرق أن نطرد عطانته، أو سنكون قد انقلبنا على تاريخنا وخُنَّا تلك المسيرة. وأعترف أنني لم أصرخ بما يكفي ليفزَع لصوص كثيرون نراهم ونسمعهم يتبجَّحون بأنهم صانعو مسيرتنا/مسيراتنا، ومن استفحال السرقات تركنا عيوننا وآذاننا وضمائرنا، أيضًا، مفتوحة على وسعها يعبث بها اللصوص يعبثون بالوطن. إنما والذكرى تدق لا مناص من أن نسترد وعينا فنقبض على السارق متلبسًا بالجرم المشهود، أو سنمسي شركاء في سرقة وطن لم يكن نضال استرداد الصحراء إلا أحد أسمائه اللاتنتهي.

فأهلًا بذكرى مسيرة ينبغي أن يعادَ لها اعتبارها بأسمائها ورجالها، وبصقل حوافزها، وترسيخ ركائزها؛ فتتضافر فيها المبادئ والمثل مع عمد المواطنة والإنسان والعمران، وينبثق عن هذا إحساس بالوجود في زمنية وطنية متجددة، قوامها روح حاضر وثاب، تغذى ويتغذى بماضٍ ليس هو كسوة البلى ولا سحنة النسيان، فبأي آلاء ربكما تكذبان!

وفيما أسترجع حميَّتي أو أكاد، تسري من جديد قشعريرة الخوف في الأطراف التي ما زلنا نخوض بها حياة المعتاد، ولعمري هي مؤرقة تنبهنا إلى أخطار جسام لم يعُد جيلنا نحن قادرًا على تحمُّلها بحكم فتور الهمم وفناء الأعمار. وإنني لأنظر إلى أمس، أي إلى ثلاثين سنة خلت، والدم الحار لعشرات الآلاف من المغاربة يسري في شراييني، أنا واحد منها، فيها، رءوس عارية وأجسام طاوية وأقدام حافية ونفوس راضية مرضية تحمل جزءًا من المصحف، لا تقسم إلا بالسبع المثاني والقرآن الكريم أن لا تضيع حبة رمل، وأن لا بدَّ من «لعيون» وإن طال السفر أو لعلع في أفق المحتل الشرر. وكنا إذ ذاك شبابًا، والمغرب المكابر — بحزنه وفقره — صار بسيرنا أحلى إهابًا؛ جباله وحقوله محروثة في أجسادنا، نجومه تضيء من عيوننا، والشمس والقمر فقط ما يحدَّانه بين شمال وجنوب، لا

ما سعى إليه الغزاة، ولا الأنغال من بعدهم يخسئون. يومها سرنا خفافًا كالملائكة، ورأيت بقلبي الله ينظر إلينا بحدب، وإلى العتاة والمتقاعسين بغضب، والسماء تبارك خَطونا لأنَّا كنا بسطاء ومخلصين، بلا تجبُّر أو ادعاء، وما زال منا فريق على العهد إلى هذا اليوم الذي ننظر فيه إلى زماننا فنرى وجوهنا في مرآته ذكرى شاحبة؛ لأن اللصوص مرُّوا من هنا لأنه ما عاد أحد بحاجة إلينا.

حسنًا، لا بأس من هذا الوبال، إنما الفادح هو أن تنطوي روزنامة البلاد على بعضها بدون حس أو حساب، ما بالك لو تحوَّل الوطن كله إلى مجرد رقم في «حساب»؟! وأن ننظر إلى أولادنا، إلى طلابنا وتلامذتنا، ونخاف إن مددنا أصابعنا إلى رءوسهم أن لا تمسَّ إلا العجين، أو تدور في جَون مثقوب. ذكرى مسيرة هذا العام والآتي القريب ينبغي أن تفطننا إلى أن صمودنا في معركة الوحدة الترابية، وانتصارنا في معركة الديمقراطية، وكسبنا لمعمعة الغد والتنمية، لا مناص لها من الدخول العارم لجيل وطني جديد، وفي مسيرة جديدة سيجدنا فيها دومًا سندًا، فليتفضل!

من وأد الماضي إلى سلب المستقبل

في فترة مراجعة الثقافة العربية وتراث أمتنا، التي عُدَّت ثانية بعد صحوة النهضة الأولى، اتجه عدد من الدارسين العرب إلى الحفر المستنير لهذا التراث، والدعوة إلى ما سُمي بنزع القداسة عنه، نشدانًا لفهم أفضل لمحموله، ورغبة — بصفة خاصة — لإحداث تلك القطيعة التي يكفُّ فيها التراث عن أن يتحول إلى مغيِّب للحاضر وبديل للمستقبل. شغلت أبحاث الأستاذ محمد عابد الجابري واسطة العقد في هذه الأطروحة التي ما لبثَت أن اتخذت لديه وعند مريديه — أو باحثين آخرين — تفريعات وتطويرًا لتعميق المفهوم وتشخيص نماذج ثقافتنا وترتيب أنساق تراثنا من وجوه شتى، بما يسمح بتحديد مجدد لهُويتنا في زمن لا يكفُّ يتغير.

لكن هذه الدعوة/الأطروحة لم تَنزِع، كما أوَّلها البعض، إما مجتهدًا أو مغرضًا، إلى القول باعتبار مفهوم القطيعة الإبستمولوجية نفيًا ولا إلغاءً للماضي بتاتًا. لقد تحرَّكَت في جانبها الأيديولوجي — الذي كثيرًا ما اختلط بغيره — نحو نقد السلفية الجديدة؛ أي نزعة تغليب أو إسقاط منظور ومسطرة معالجة شئون الحاضر بأدوات هي بنت زمنية سالفة، من باب قياس لا مجال للإسهاب فيه. وهي أرادت في العمق أن تعمل كمنظومة معرفية تستعير أو تنتج قدر الإمكان، بدائل على صعيد الجهاز المفاهيمي ومنه إلى متغيرات المعيش، أي الواقع بمختلِف مكوناته. ما يهمنا هنا هو الوعي الفكري والنقد المعرفي الذي تبلور منذ العقدين الأخيرين للقرن الذي ولَّى، وأمَلَى حتمية إعادة نظر جذرية تُفكك المكونات وتعيد بناء الأنساق، بصرف النظر عما شابها وتلوَّنت به كتأويلات أيديولوجية، وتوجيه سياسي أحادي البعد. فهذا هو المعتمد والسند الصحيح في مرجعية/مرجعيات التغيير لدى النُّخَب العربية لنهاية القرن.

بَيدَ أن التشوش النظري — من جهة — ونزعة الإغراض المسخرة، إما بمنهجية ثقافية مزعومة، أو بسياسة موجهة ومفروضة — من جهة أخرى — فضلًا عن الانهيار المتواصل للعالم العربي أمام أزماته، وإزاء الهيمنة الخارجية وتحديات العولمة، هذا كله قدَّم ويقدِّم الآن طرحًا مفلسًا للماضي في اتجاه إعدامه، أو إلحاقه بالعدم، يتعلق الأمر بماضينا نحن ... الذي كان، أليس كذلك؟! وعوض أن نوسع دائرة التمثيل والمقايسة نبقى فيما يقدمه محيطنا من أنماط تبرز الفهم اللاتاريخي وحتى المبتذَل. في البلاد التي ما زالت إما تُراوح مكانها في استبداد مشذَّب أو إنها ما تزال تتلمذ في مدرسة الديمقراطية — والمغرب منها — نجد فيه فئات هجينة تتخصص في الصدى؛ حيث سياسيون وإعلاميون يُروجون لطراز جديد من التعامل مع مكونات مجتمعنا. هكذا، إن الأحزاب التاريخية عندهم انتهى دورها، والصحافة الوطنية الراسخة صارت رثة، والأعلام والوقائع التي ميزت زمنًا، بل أزمنة، كما تحددت علامات باهرة وحاسمة في تاريخ شعب قد خبا في عرفهم ضوءُها، فيما اعتمادها مرجعًا لا غنى عنه للشخصية الوطنية ليس أكثر من حنين رومانسي، وما أشبه مما نجد له نظائر في تصريحات طائشة، وأقوال تجري على ألسنة مغاربة جدد — لو صحَّت التسمية — يشاركهم جوقة متأسلبين مهمتهم التسفيه والشَّدو بهذيان الحمقى والمغفلين. وإذا كنا لا نستطيع وضع حد للغو ما دام يتحرك في مدار «العباطة» لتعميم العمى؛ فإننا في المقابل لا بدَّ أن نخاطب الذين يتبنَّون، بوعي وقصدية، النهج ذاته. تراهم، مثلًا، يرسمون الخريطة الانتخابية بتقديراتها على مزاج، ويفككون التركيب السياسي لبلاد يقولون إنها أفلتت من وعي التاريخ ودخلت إلى حتمية الذرائعية. أهم من هذا وذاك أنهم يحفرون طريق الغد على منوال الحسابات الظرفية، الزمن لا يتحرك فيه إلا في بؤرة واحدة موحدة، لا غير، مع مراعاة تكاثر الفقاعات.

لن نخاطب هؤلاء بمصطلحات وقيم يعتبرون الزمن عفى عليها. حسبنا أن نسألهم، أولًا، من أين أتَوا؟ ثانيًا، كيف، وبأي «تعازيم» انسلخوا عن تاريخنا إن كانوا انتموا حقًّا إلى شيء؟ ثالثًا، هل البدائل التي يُلوحون بها — الشبيهة بعلب محفوظة — هي من إبداعهم أم استعاروها، وممن؟ وهل يستطيعون لحظة واحدة حين يصبح التبجح بالكلمات، القواقع، السلعة الوحيدة في المزاد المفتوح، أن ينكروا بأن الجهات التي لا تقبل المساومة على تاريخها، أي ماضيها الحي لا الميت كقاعدة وجود تبقى تقض مضاجعهم، وفي مرآتها يرون ندوب وجوههم رغم طلاء الوقت. لسنا سلفيين، ولكننا لسنا عدميين، ومن يقبل المساومة ويعتمد المحو لا يمكن أن يكون جديرًا بالمستقبل، الذي هو إشباع بزمن مركب، زمن شمولي.

لا بحر في المغرب!

بدأ الماء ملتبسًا وهو يحوم حولكِ، هو الذي عادة ما يقتحم بلا هوادة، لا يحفل بنظرات الريبة أو التوجس يلقيها عليه — عليك، أيضًا — الخائفون من عري مبجل بفصاحة لا تضاهى، لعينين تصعق من فتنتها الأمواج كان ذلك قبل «تسونامي»، وأشهد أنه باقٍ؛ لأن إعصاركِ لا يفوت، وما هو إلا مثل البراكين، الهدوء منها خدعة للفوران الأعنف؛ يقينًا لن تهدئي. لم أسمع من قبل؛ للخطو حفيف وله ذكرى ورفيف، مثل النوارس في شاطئ «أصيلة»، ونظرتي إليها وهي تطير لتحوم حولكِ ملتبسة الطيران أربكها سماع خطو شفيف عند الأطلسي؛ فاختلَّ عندها الإيقاع إلى أن اهتدت بخفق في ناظريكِ إلى البحر الخفيف.

في الزمن الذي سَميتِه كان السُّقاة كلما ذهبتِ إلى البحر يجلبون الموج إلى سرير رملكِ، ولهم غناء كالحُداء: «اميها باردة!» لك وحدكِ، وليظمأ العالم، بعدكِ، حتى الفناء. أحيانًا يستعجلون حضوركِ، لا يعلمون أن القاصي والداني يلهج باسمكِ، عند بابكِ، فيدفعون المد زرافات ووحدانًا إلى شرفات الخد، وينتظرون العمر كله أحيانًا كي تهطل دمعة واحدة عند أعتابك. في زمن آخر تشابهت فيه الأسماء؛ نحَل الموج والسقاة أنفسهم باعوا قِربهم من عطش وصاروا يغرفون من بكاء. وقفتُ قبالة بحركِ فلم يصلني صداكِ، ولا شممتُ رائحة الأنواء. دفعتُ صدري للمدى فلا أنتِ حضرت ولا أيقظكِ النداء. هكذا أنتِ رشقة باللحظ، على سُدة الأعالي تمضين صعدًا إلى السماء. لا تقبلين بغير سدرة المنتهى وخلفكِ الوالهون، من هم؟ ندوب، جراح، بقية أشلاء.

لم أحسب سيفيض حنيني؛ لكن الجزر تباعد، والمد إليك ما أبقى مني، كل شيء أخذ. الطريق إليكِ الآن قشرة ملساء، كأن لم تُحفر فيها تضاريس الجسد، ولا امتد بيننا ما عددناه الأبد. الطريق؟ أي صدفة، نبوءة، حبلت بطيف لقاء، أم تراه بات غبارًا وقتنا

صيَّرنا هباءً؟ كلا، مرح، فرحٌ أفرح، أسلس الوقت لآخر، غدونا فيه مثنى وفرادى، لا ترى وجيف الوامقين فيه إلا وصلًا ومهادًا، ولكم أعطينا كل ما ليس يعطى وفرًا وانقيادًا. لم نبالِ إن كان العصف مرَّ أمس أم سيأتي غدًا. لن نبالي، ما دام هواها «اميها باردة» دومًا مرقدًا.

كل ما حدث لي قبلكِ، فبعدكِ، كان بسبب البحر. فالذين ترعرعوا في ساحل الدار البيضاء ناموا دائمًا تحت أجفان البحر المقمرة، وسكنوا أحلام الحيتان السابحة في الأعماق، وكلما استيقظوا فارت الشمس من بشرتهم ساخنة، ولا ارتضوا لهم عيشًا بلا أنفة. أذكر أن رأسي كان متوازن الحجم والعقل في حسباني إلى أن قرأت ذلك العنوان على غلاف كتاب. نحن أولاد درب الأحباس البيضاويين تعلمنا أن لا نتسكع إلا بين المكتبات أو نركب الصيف في أول موجة. لذا حين قرأت العنوان أشكل عليَّ الأمر، ولم يكن من سبيل لفضِّه إلا الدخول إلى المكتبة: «مكتبة دار الثقافة» للشريف القادري. إنما الكتاب في الواجهة وأنا وقتها تلميذ مفلس، ووالله لا أنسى كيف شملني الشريف بنظرة حدب، وقد حدس حالي ومرامي، فسلَّمنيه مقابل وعد بتسديد لاحق ليحفظ كرامتي، حفِظه الله وأدام عليه سائر النعم. أعني رواية «لا بحر في بيروت» للأديبة السورية غادة السمان، وقد صدرت إذ ذاك (١٩٦٣م) عن دار الآداب اللبنانية. دفعة واحدة انقلبت بيروت التي على المتوسط، وما أبهاها في الزمن القديم، إلى مدينة القحولة، وجفَّ فيها رُواء الأحباب، أبطال يصارعون بين اليأس والأمل لبناء مدينة أخرى بلغة ونسيج المجاز. منذئذٍ وقعت في المصيدة — مصيدة المجاز — وفي ١٩٦٥م حين سقط مئات الجثث بالدار البيضاء (أي معنى للشهداء اليوم؟) حوَّلوا البحر إلى مقبرة، فتغذى الحوت بتلاميذ كانوا قد قرءوا تلك الرواية!

دخل تلاميذنا إلى المدارس الابتدائية، وارتقَوا إلى الثانوية فالجامعة. في كل المراحل علَّمناهم أن الوطن، عددناه دومًا مغربنا، يحده شمالًا البحر المتوسط وغربًا المحيط الأطلسي. وهم رأوا هذا بأم العين لا في الخريطة الجغرافية فصدقوا مثلما صدقنا، وحاشا أن نكذب على فلذات أكبادنا. لكنا — رغم أنفنا — صرنا في مقام الكاذبين، فهم كلما حل الصيف واحتَّرت أجسامهم، ولم يجدوا من سبيل آخر للنجاة، وقد لفظهم ذاك البحر غير البحر، إما ارتدَّوا إلى الغِيران التي يسكنون مُبعدين أو منبوذين، أو تجمَّعوا في خلايا نمل متكاثفة في أخاديد وجيوب يسمح لهم بالتقزم فيها كأنهم بقايا الهنود الحمر؛ وهذا ليُبللوا لحمهم بالماء المالح الذي وهبه الله، هو والعذب، لعباده بلا حساب أو تقتير. لكن هؤلاء العباد طغَوا في الأرض ونهبوها، ووزعوها لا بالقسطاس ولكن على قياس الجشع والترامي والصفقات.

بذا ما عاد التلاميذ ولا المدرسون ولا كل أولئك الذين يقطعون الكيلمترات على الأقدام في عصر الصواريخ العابرة للقارات ليغطسوا في احتضار موجة ما عادوا وسواهم مغاربة، بل غرباء في زعم وطنهم، ومن استخفَّ فليجرب أن يرتاد واحدًا من تلك الشواطئ ليجدها مسيَّجة دونها ألف حارس وسياج لحفنة من البطرين، ولجميع الملايين حفنة رمل وكسرة خبز و«اميها باردة» يبيعها للمصطافين تلاميذ الخيام والصفيح ليقتاتوا منها، وغدًا يكبرون وإلى البحر يذهبون، وعندما يجدون أن تلك الحفنة صادرت الموج والرمل، وحتى المد والجزر، وحتى الأفق غطت فحرمت الشعراء من فتنة الغروب؛ عندها يرمون أنفسهم جزافًا في لُجة البوغاز كالمنتحرين، في عبور مستحيل إلى لا يقين.

أما أنا، وقد أيقنت أن لا بحر في المغرب؛ فإني حفرت في داخلي، وطفقت أُخرج ما رسب في قلبي والحشا من شجاها وشذاها وعميق مياهنا الجوفية؛ لأراها من سؤدد نظرتها، سعف نخلتها، هدب نخوتها، تعتلي هودج بحرها، تسقينا نحن العطاش بلماها، وتعيد للندى رقيق لمسته؛ فيصير ماءً تنفخ فيه من ذوبها وديانًا وفجاجًا، وها أنا ذا لا أملك — بعد صولتها — إلا أن أسبح بحمد الله وبزوغٍ وشيكٍ لغد هذا الوطن.

في انتظار الجولة القادمة

سواء انتمى صاحبها إلى الشرق أو إلى الغرب — دعك من مغاربنا — تبدو الكتابة عند صاحبها نوعًا من القدَر الممضِّ يحكم عليه بملاحقة ذاته في ذوات الآخرين أو من خلالهم، أو البحث عبر هؤلاء عن الحيِّز المحتمل القابل لاحتواء ذاته على سبيل الواقع أو المجاز. يفعل ذلك خارج دائرة الأمل واليأس معًا لأن ما يبغيه يجهله سلفًا أو يطمره في مكمن الكتمان، لا يذيعه إلا مقسطًا أو مقمطًا بالسحر، يمشي وراءه وهو يكتشف تحليقه في اللحظة نفسها التي يرافق فيها أسراب الطير والعيش والمنية.

يعيش جميع الناس بالأمل، بالحلم؛ فلولا الحلم لأكلوا أنفسهم من طول ملال ومقت عيش. لا يفضُل الكاتب الآخرين بشيء كبير، يريد أن يقول هذا ليبعد عنه تميزًا سيثقل على كاهله حتمًا بلا طائل، وخاصة في بلدان يعتبر الابتلاء بالقراءة والكتابة فيها مضيعة للوقت وامتيازًا متروكًا للواهمين. لا تستغربوا أن جميع أنظمة العالم الثالث — منه عالمنا العربي التعيس — لا تتعامل مع الكتاب والمثقفين عمومًا بالجِد الكافي، إلا أن تسخرهم كراكيز لمآربها، وإذ يظنون أنهم يقبضون على زمام الأمور؛ فإنهم يفعلون ذلك بعباطة تثير الشفقة حقًّا. هناك تفوق واحد — ولو بشكل معكوس — يستطيع الكاتب أن يدعيه، حين يتوسوس بكتابته، وتغدو حلبته الأولى والأخيرة تقريبًا. إن له أن يزعم مثلًا، وليس له أن يخشى في ذلك أحدًا أو شيئًا، كونه يعيش في الوهم ومن أجل الوهم. بهذا الادعاء تنفتح أمامه أوسع أبواب الحرية، حتى ولو كان مغلولًا بألف قيد؛ ولذا فهو يتهيأ بالقول، يقتات به، وفي مضماره — أليس هو مضمار العالم، في النهاية — يصول ويجول، ويخيل إليه أنما في موقع النبوءة؛ كأنما فقط، وإلا سيتوهم أبعد.

بالرغم من كل تلك النظريات التي وضعت الكاتب عهودًا ومدارس في خانات الواقعية والالتزام والانتماء — وما شاكل — مما هو من قبيل محاولة التدجين والترويض لكائن

لاتوافقيٍّ متمرد بطبعه؛ فإنه يظل خارج المعتقدات السائدة والأيديولوجيات المروَّجة بحقٍّ أو باطل. قد يُتاخمها أو يُمالئها فيما يبقى خارجها، لا لأنه — جدلًا — يعيش في داخل كُنهٍ ما، وليكن كنهه بل بسبب اعتقاد آخر بمثابة وهم بأنه أيديولوجيا نقيض تخوِّل له الزعم أنه خلافًا للرأسمالية والاشتراكية اللتين أوكَلَتا لهما تدبير الثروة والفقر في العالم؛ ومن ثم إعادة توزيعهما بكيفيةٍ ما؛ فإنه — هو الفرد الأحد — مهمته أن يتولى تدبير الحزن بين بني البشر. ومقتضى هذه المسئولية التي لم يضعها على عاتقه أحد — سوى وهمه طبعًا — أن يتصرف؛ أي يكتب، أن يتخيل، أن ينشئ لغة، ويخلق كائنات، ويحرث أراضٍ، ويرسل حُداءه في فَلوات؛ كل ذلك ليجعل الحياة محتملة بعض الشيء، والعالم — عاليه وسافله — قابلًا للعيش. بهذا المعنى فالأصل في الأشياء الحزن لا الفرح، وفظاظة الوجود لا وداعته وانشراحه. الأصل عنده — وهو ما يراه مشخَّصًا في الواقع بفجاجة — التكالب اللانهائي على حياة تُعاش بنقيضها، أي بالعدم، والتطلع اللامحدود لنفوس لا تستطيع أن تشيد فضاء بحبوحتها الروحية إلا بإلغاء كينونة الآخرين. أيُّ شقاء هذا، وأيُّ ورطة على الكاتب تدبيرها ليعيش!

ورأيتني في ضائقتي هذه لا أُحير فعلًا ولا قولًا؛ فالتفتُّ إليك يا شيخي، أنا المريد تقطَّعت به السبل، ولم يَعُد ينظر إذا نظر إلا في سماء العمى، يتوجس من كل شيء، تستفزه الأهواء فكيف بالأنواء! ولا يدري على أي جانبيه يميل من فرط أناس يأكلون أنفسهم وأرض تأكل بعضها، فيا ويحها، أضاعت صورة وجهها في يومها قبل غدها، وأنت لا حول لك كي تُقيل عثارها أو تحمل عنها أوزارها، ماذا دهاك أم دهاها إما تسلَّط القبح عليها فأخفى بهاءها، وما عدتَ واجدًا إن بحثتَ ما يعيد فوقها دثارها أو ينير سمتها كالذي يُعلي مقامها، بعد أن مضى مجدًا كان مجدها، ورجالًا بالأمس شادوا بالدم ونياط القلب بنيانها.

أجابني بعد لأيٍ حتى خفتُ ما عاد يُسمع لي قول: أنتَ فعلتها، فمن أطلق نظره دامت حسرته، وأنت مذ ولدتَ اخترت بابًا يذهب إلى أبعد المسالك، هي المهالك، فتدبر شأنك أو ارتدَّ إلى مقام السريرة حيث لا تُفشى الأسرار، أقم فيه إلى أجل محتوم لا يعييك فيه الانتظار. لم يكن لي بعدُ هذا، وأنا في وهدة الردى، غير لساني خلته سيعبر بي إلى عشيرتي أنشر فيها كلامًا أحسب لم يقله أحد قبلي، لن يخطر على أحد بعدي، فوجدتُ مذ دخلتُ ذلك الباب الكلام يتخطى عتبات السلام ويثير الفتن بين الأنام، ووالله ما قصدتُ إلا أن أفك طوق الحمام.

عدت أنظر إليه أستفتيه في تشابه الفصول بأرضنا أنسانا شحوبها زماننا وتاريخنا وأرومتنا، ودربتنا على أن تنحني منا الرقاب حتى الكعوب لكي لا نظفر في النهاية سوى بقليل من تفاصيل الدعة ونقيم في طقوس المهرجان. عدتُ أقلِّب فيه النظر والطريق إلى سؤله كله حشرجة وسعال العابرين، وطحين الكلام منتثر فوقنا وقاماتنا تُساق بوجوه في الرغام. وهو لم يكن ليجيب ولم يبقَ إلا في ومض السؤال. من رأيت مضى، وأنا عييت من ذهابي في الفوات. لا ألتفت والأيدي تدفعني إلى حتف ما تبقَّى من حرقة الكلمات. حين أهبط في قرارتها لا يصعد أي دخان؛ فقد مضى عهد الحريق وادلهمَّ الطريق، أكاد أقول يا رفيق.

لن أجيب بعد اليوم من أكون، سواء في أوراق الإدارة أو لضرورة المحبرة أو طقس العبارة. في شبابيك المطارات العربية أجهل دائمًا من أكون. لا، بل أخاف ممن أن أكون. لو قلت: كاتب، لضربتني العين بعلامات التعجب: ماذا تعني، أوَتهزأ بنا، فيا أنت من تكون؟! لا أحد قطعًا. فقط، أحيانًا أرقص فوق حبال البلاغة، أخرى أمدُّ من جسدي جسرًا لعبور بلادي، وطورًا أشتاق للبكاء على صدر الحبيب. هذا طبعًا إن لم أتجرد؛ إذ ماذا يبقى حين أمسِي لا أحد؟! لم يَعُد أي خطاب يتقدَّمني. صرتُ ورائي. أما الأمام فشكل هندسي، مرة نملؤه بالولع. ومرة أخرى نطلق منه صيحة الغضب. ونرانا منذ أعمار وقفنا لا نعرف إلى أي شيء أو على أي نحو ينبغي أن نمشي. الوراء أيضًا شكل هندسي في صورة أضرحة أو طلول أو نبش بالأضافر في جدران الزنازين، مع فارق أنه لا يُلزمنا بشيء تقريبًا غير أن نقتات ببقايا لحمنا ونتعلم الإقامة في أتون الذكرى كي ننسى، وكي نجدد التعلم لا بأن الشهداء لا يعودون فحسب، بل بأننا نقتلهم كل يوم حتى يبقَوا أبدًا على ضفاف دمهم، ونبقى نحن على قارعة النسيان … ربما في انتظار الجولة القادمة!

الجزء الثاني

«تموت الحرة ولا ...»

في تعليم معنى الوطن

اتسمت الاحتفالات التي نظمت في بلادنا أخيرًا بمناسبة الأعياد الوطنية الثلاثة المجيدة بقدر عالٍ من الأبهة والبذخ الماديين الرمزيين في آن. في كل مدينة وقرية بهرجة وبريق وأهازيج، وليس أفضل من خمسة أيام من الدعة للترويح عن النفس، ونسيان الوطن — أكاد أقول — للاحتفال باستقلال هذا الوطن. هل يجوز لأحد — ولو من باب الوسواس الخناس واشتغال الهواجس — أن يفكر بالعكس فيلوم أو يتشكك في النوايا والمقاصد أو غيرها، سواء من جهة الأقوال أو الأفعال؟ وهل ثمة أغلى من ذكرى كهذه ليعبر الشعب وملك الشعب والمؤسسات الحاضنة لحماه عن فرحة بلا حدود، سواء بمظاهر البهجة، كما بفيض الخاطر.

كلا، لا يجوز، بل الصواب طلب المزيد، خاصة حين نعرف — نحن نعرف حد الجنون — أن أُسرًا مغربية تبذخ بسفهٍ لتافه المناسبات، ولا تستحي أن ترى قصورها مطوَّقة بأحياء ومزابل الصفيح، وبالآدميين المضوَّرين — كالكلاب — بالجوع، أعلام عاهة على مداخل المدن. نريد طلب مزيد فرح، وسخاء بهجة، لشعب نراه عامًا بعد عام يغطس في لُجج الحزن، ولا سبيل يبقى له للأمل غير الصبر والتوكل على الغيب. وأُسرًا أخرى نعرفها لعلها تنظر إلى كل البسطاء والفقراء بسخرية وازدراء وهي تَراهم يسرعون الخطو متكاتفين متدافعين، كي يجدوا موطئ قدم — فقط — قبالة رُكح، أو محيط ساحة، أو أقل من ذلك خلاءً أغبر، إنما سيأتي جوق للغناء، وتسمع «الجرة»، وتمر خيل توقع بحوافرها الأسفلت، أو يدوِّي من جوف المكحلة البارود الذي يقول ما لا يقال والخيل قد أرسلت إلى الأفق جميل الصهيل، ومن يدري فقد يهل السلطان بطلعته إثرها كما يتنزَّل سيدنا قدر ليلتها، ليسعِف عيونًا تنظر إلى السماء بألف رجاء.

فكرت في أننا ذهبنا جميعًا — جلًّا — إلى الحفل، ولم نذهب؛ وذلك ببساطة لأن الحفل هُيئ لنا مثل مائدة حافلة بالأطايب تكالَبنا عليها وبخَلنا على العريس بهدية العرس. تذكرت أول شيء — وهذه مثلبة لم أتخلَّص منها بعد — ما كنا عليه في ماضينا التليد مع الأعياد الوطنية أعظمها عيد العرش؛ حيث لا بيت إلا ويرفرف فوقه علم، ولا زنقة أو حي بلا حفلة، حتى الصبية يلعبون لعبة العيد، تراهم يبحثون عن الجريد والخرق لصنع خيمة أو خباء هو للعيد السعيد. تذكرت الأناشيد محفوظة عن ظهر غيب، والكشفية الحسنية، والأسر الطيبة تجتمع حول الشاي والقرنفل وخبز سميد، والزغاريد ترقرق دائمًا احتفالًا بالعيد. وبعد أن جُلتُ في ذاكرة البلاد سنين عددًا، وبدا لي عمر الذكرى كأنه مضى أو سيمضي بددًا، قلت لا بأس أن أشير بما لا يعجب في ما ظنه البعض أعجب، وفي قلبه أنه كان حريًّا بنا نحن أن نصنع احتفالنا، وأن نُهيئ أو ننخرط جميعًا في تهييئ طقس بهجتنا، وإذا كان من واجب الدولة والتزامها أن توفر ما يلزم ماديًّا، وأن تواكب إعلاميًّا؛ فإن القوى السياسية والثقافية الوطنية، وكل الفئات الشعبية، لهي ما يمثل قطب الرحى في مضمون أعياد الكفاح ورموز السيادة. ما من شك أن في عنوان الأعياد الوطنية في المغرب تلاحم وتظافر العرش والشعب، وهو شأن محمود، لكن التعبير عن هذه الصيغة بروح جماعية ومنظمة وتشاركية أمر لا غنى عنه.

هذا، وقد اتفق لي أن اجتمعت عشية الأعياد في مؤسسة جامعية إلى طلاب في ندوة دراسية ونقاش مفتوح خصصناه لمفهوم الوطنية وحصيلة خمسين سنة من الاستقلال، وأردت أن يكون أكثر الكلام لهم وبعض التعليق لي. وإذ لا يمكن للمرء إلا أن يعجب بما يبديه الطلاب من حماس في أي مكان؛ فإني وقفت على أمور حرجة ومقلقة لم أكن غافلًا عنها تمامًا، وإنما زدت بها اضطرابًا وخوفًا على مستقبل مأمول. فلقد كاد الطلاب يجمعون على إنكار أي دور لهذا الاستقلال في حياتهم، ولا هم تبيَّنوا أو يتبينون ما هو منجَز وحادث في بلادهم على امتداد العقود الخوالي، وإنهم — بعد هذا وذاك — يبدون كأنهم لا يبالون؛ فإن بالَوا فبتباعُد غريب، تحسبهم يعنون بلدًا آخر، والمعنيُّون من جلدة أخرى. لكن الأدهى والأمر هو ما يمكن فعلًا أن يستفز الملاحظ من جيلنا، على الأقل، ممثلًا في جهل فعلي بتاريخ المغرب جملة وتفصيلًا، والوقائع مع الأعلام والعلامات الكبرى لتاريخه الحديث، أو هي نتف لا تسمن ولا تغني، تعبِّر عن ضحالة في التعلم أو التربية، دعك من انعدام الإحساس بالمواطنة، أو هذه الأشياء كلها. وما أنا بالذي يُنحي باللائمة على أحد؛ ففيَّ الخصام، ومبلغ ما أتطلع إليه من هذا الوصف، يشهد الله أنه خالٍ من التجنِّي،

مع وجود استثناء يؤكد القاعدة هو التنبيه، من نحو، إلى خطل عظيم، ومن نحو آخر طرح السؤال إن كنا نحن الأوَل قبل أبنائنا اللاحقين، نتحمل المسئولية وفي وضع المقصرين. نعلم أن درس التربية الوطنية عامٌّ في المدارس، وإليه قليل من التاريخ والجغرافية، لكنه تعليم المعلومات غير المرتبط بالقيم والمفاهيم، وقبلهما بالسيرورة التاريخية، يفرغ منه التلاميذ حين يحرقون دفاترهم أو يبيعونها بعد نتيجة الامتحان لأول دراجة عابرة. مؤكد أن الأجيال تتغير وتحمل اقتناعات أجدَّ، وطبعها رغبة الانعتاق من الأجداد والبحث عن هُوية مغايرة، كما تطلعها إلى الأمام رائدها لا الالتفات إلى الوراء. بَيدَ أن هذا لا يُعفيها من ثقافة الثوابت، مثلما أن حرصنا نحن على أهمية هذا الطلب ينبغي أن ينبِّهنا إلى البحث عن أسباب إخفاق ظاهر في هذا المجال. وإذا كانت الكلمة المفتاح اليوم في الخطاب السياسي بالمغرب هي المواطنة؛ فإنها ستبقى قوقعة فارغة بلا مفهوم الوطن تاريخًا وتطورًا ومسئوليات وتبعات، والقوى الوطنية بمكوِّناتها المختلفة، التي شيدت بناء الأمس مدعوَّة لتفحص بعناية هذا الاختلال الذي يمكن أن يشدَّ مستقبلنا إلى مجهول أو يزجَّ به في طريق المجهول، وأن تقترح له الملائم من العلاج قبل فوات الأوان. إن إحساسنا بالتقصير في تعليم الوطن كما ينبغي هو خطوة واثقة سنقطعها في مطلع خمسينيةٍ ثانية من استقلال لن نقبل أن يضيعه النسيان ولا تجاهل الغافلين.

الحاجة إلى المدرسة الوطنية

ما نعنيه بتسمية واصطلاح المدرسة الوطنية هو المدرسة العمومية، هذه التي تعلمنا فيها وتربَّت الأغلبية الساحقة من المغاربة منذ الاستقلال، بل قبل ذلك، وما تزال. ونحن لا نغفل هنا أن صفة الوطنية أطلقت على مجموعة من المدارس أسست في مدن مغربية متفرقة (الدار البيضاء، فاس، تطوان، مكناس، من بين أخرى) إبان فترة الاستعمار، على يد فقهاء وعلماء ورجال سياسة ينتمون إلى جيل الحركة الوطنية، واضعين على عاتقهم النهوض بالثقافة الوطنية واللغة العربية في مواجهة الدخيل الأجنبي، وللحفاظ أو بعث هوية وطنية معينة من الضياع تحت ضغط ما اعتبر من تهديد الأجنبي، في مظاهر ومضامين شتى.

لا يعني هذا أن المدارس التي أنشأها الوطنيون — كجزء من استراتيجية الكفاح الوطني — كانت معازل مغلقة أو متعصبة ضد الجديد شكلًا ومحتوًى، المتمثل في قسم كبير منه في ثقافة المستعمر، معبرة فقط عن روح المحافظة أو الأصالة، أو ما إليهما من المعاني، أي ما كاد بعض يحوِّله إلى وصمة تخلُّف وازدراء يلصقه بوجه هذه المؤسسات. أجل، فقد كانت مدارس متواضعة في إمكاناتها، أهلية أو خاصة في مواردها، وإن لم تكن تكلف إلا الزهيد قياسًا بفحش التكاليف الخصوصية لمدارس هذه الأيام، ما أكثر المتطوعين في رحابها، والعاملين بأجرٍ يسير. وهم في وضع المناضلين، كتلامذتهم من أبناء المناضلين، أولاد الشعب عامة، لا أبناء الأعيان الذين كانوا في وادٍ آخر.

وقد استمر نموذج المدرسة الوطنية (لنمثل له بمدرسة النهضة في سلا، لمديرها الوطني الكبير بوبكر القادري) زمنًا بعد الاستقلال، ثم أصبح في كنف الدولة ترعاه ماليًّا وتأطيرًا، وعوض أن يتطور ويزدهر بكيفية أفضل أخذ شكل هذه المدارس الحرة التي اتفق لها انتشار عجيب، ونراها تتجه إلى الهيمنة على «سوق» التعليم بشكل كاسح،

بأسباب الحق والباطل على السواء، ونرى أن التطور أخذ منحى التغيير أو الإبدال، مع بدايات الاستقلال، مع تكفُّل الدولة بقطاع التربية والتعليم الذي يُعدُّ — إلى جانب الصحة — من أوجب واجباتها، ما تمثل في الاستتباب التدريجي للمدرسة العمومية، وصعدا في السنوات والعقود الموالية، إلى تحقيق مطلب أساس لجميع القوى الوطنية، أي تعميم التمدرس في جميع المناطق الحضرية والقروية.

ونحن نذهب إلى أن المدرسة العمومية هي ما يحمل وينزل منزلة تسمية ومسئولية المدرسة الوطنية؛ لذلك نجري عليها نعتها، ونحيل عليها وظائفها كذلك. وليس هذا مجال الحديث عن اختيارات ومناهج ومفاهيم وأساليب التربية والتعليم في هذا المضمار؛ فإن لهذا تاريخًا طويلًا، له مختصون أدرى بشعابه، فما نبغي من ضرب آخر، مطروح على صعيد القيم والإنذار بخطرٍ من بين مخاطر أخرى، يتهدد كيان هذا البلد، ويستوجب التصدي له بمستوًى ما بادر إليه مناضلو الحركة الوطنية، في ذلك العهد الذي يكاد يصبح نسيًا منسيًّا.

منذ الاستقلال، وإلى أيامنا هذه شكلت المدرسة العمومية الوطنية الهيكل التربوي الآمن والأشمل لتعليم عشرات آلاف المغاربة في كل الأطوار، وهي أربعة عقود ونيف. جيلان متتاليان تخرَجَا منها، والثالث قيد التكوين، بألوان وأنواع من التكوين متفاوتة، وكلٌّ أخذ اختصاصًا وسار في درب، والجميع يلتقي في أسلاك العاملين في مصالح الدولة المغربية في القطاعات العمومية وشبه العمومية والقطاع الخاص بكفاءات مشهود بها ولا جدال فيها.

ويرجع الفضل اليوم إلى الجيل الأول من الاستقلال في ترسيخ جذور هذه المؤسسة وبلورة مضامينها، ونمذجة تحديث هياكلها، فهو — إذَن — وبكل نواقصه وأخطائه — وحتى هشاشته — جيل وطني مسئول بكل معنى الكلمة. تشبع بتراث وأنجب جيلًا آخر، كما أسهم في صنع تراث هو لنا، ولا يمكن إتلافه بسهولة كما يتصوَّر البعض. هذا، وحين اشتد عضد المدرسة الوطنية العمومية من جميع النواحي كان اتجاه التعليم الخاص أو الحر — تسميته الأولى — يأخذ طريقه ويتصاعد بعد الاستقلال. وكانت مدينة الدار البيضاء حقل تجربته الأغنى، لا سيما في التعليم الثانوي. ولم يكن هذا التعليم مدفوع الأجر — نقيض المجاني — مثار أي إعجاب أو إغراء، بل ملاذ الخائبين أو ممن تلفظهم العمومية على الأغلب، وهذا قبل أن تنطلق موجة روض الأطفال نتيجة تحوُّل اجتماعي وتربوي، وتمتد إلى توسيع ظاهرة التعليم الخاص إلى مختلف الأسلاك؛ أي من الروض إلى السلك العالي.

ليس غرضي الخوض في تفاصيل هذا النمط من التكوين، ولا الحطَّ من قدره، ولا التشكيك في نوايا القائمين عليه، وإن كنت متعصبًا لغيره، بحكم تعلمي بين الناس سواسية، لا فرق إلا بما جُبل عليه الآدمي من موهبة وتقوى، لا ما رُزق من مال وحده. وإني لأرى اليوم قومًا ذوي مال — لا علاقة لهم، ولا لغيرهم، بثقافة الليبرالية والرأسمالية على الإطلاق — يتهافتون على الربح من باب التعليم، وإذا كان هناك دائمًا أناس مدفوعون بحوافز تربوية ومقاصد محمودة؛ فإن آخرين يتكاثرون تراهم كأنهم يُقامرون عينهم أولًا، على ما يجنون مالًا كيفما اتفق، لا من ثمار التربية والتكوين، وإلا كيف يستوي الاستثمار في الحانات والمطاعم والمخابز والعقار، ومثله كثير.

وإلى هذا الحد، فالناس أحرار — هكذا — في تدبير أموالهم وذكائهم، ضمائرهم — أيضًا — على ما يناسبهم. إلى هذا الحد فقط، ما دام عاليها انقلب سافلها؛ لكن أن تتحول المدرسة العمومية الوطنية إلى ما يشبه السبَّة والعيب، وتُولد — بل تستفحل — حالة التشنيع على التعليم الرسمي الذي وُلدنا فيه وتعلمنا وكبرنا وأنجبنا، وهو رأسمالنا، وفي أحضانه ترعرعت لغتنا وثقافتنا وكثير من مُثُلنا بتكافل مع ما لُقنَّاه تربية لدى أهلنا ومجتمعنا كلًّا، فهو لعَمري فوق الاحتمال. أجل، فقد ذهب التبخيس بمدرستنا شأوًا بعيدًا يشترك فيه الواعون والانتهازيون والجهلة. وما أبغي فتنة في هذا الموضوع، وأشهد أن شعبنا البسيط الحقيقي جدير بأبنائه، تعلموا بل نبغوا، هم باحثون، مبدعون، ورواد حيثما تشاء، لم تنبت لهم الأجنحة في روض «الملائكة» ولا صاروا رواد حق وحرية وعقل لقرابة بجان دارك وديكارت، هم أفذاذ بأنفسهم أولًا. وما أنا ممن يعيشون في ذعر الخوف من المؤامرات أو اصطناعها تهويلًا للعالم؛ لكني أدرك أن عبئًا شديدًا يطول قيمًا ومبادئ لا لبس فيها، تعايشنا بها، وهي لُحمة لمجتمعنا، كما أن معاول الهدم تمتد لتضرب مكاسب وأعمدة تم إرساؤها بجهد ونضال. وخلافًا لما يتوهم بعض الخلق؛ فإن تاريخ المغرب، ثقافةً ولغة ومؤسسات وثوابت وطنية وتضحيات تحررية وتطلعات أكبر للعدالة والكرامة، ليست لا للبيع، ولا التفويت، ولا المساومة، ولا التبديد، ولا التقسيط، ولا التبخيس بأي حال، وكذلك مدرسة الشعب.

البعد الثقافي للذاكرة الوطنية

إننا لدى استحضارنا لأحداث والمناسبات التاريخية الكبرى التي مرَّ بها المغرب، غالبًا ما نُولي الاهتمام كله — أو جلَّه — لطابعها الظرفي، ومظهرها السياسي الذي يتجلَّى أكثر من غيره — ولا نقول يطفو — في عيون المحتفلين والذاكرين، يلهجون بعاطر ذكره السياسي؛ هو إما يختزل اختزالًا منتقصًا من قيمته الحقيقية وهيبته العامة، ويطرح أو يقرأ مجتثًا من عمقه التاريخي، مفصولًا أو مربوطًا بأوهَى الصلات مع الحوافز والأسباب المسماة موضوعية، تلك التي تؤهل أعمال ومسيرة الشعوب إلى نتائجها المثمرة، وتفضي بها في الأخير إلى المواقيت/المناسبات ذات الإشعاع الوطني الرمزي.

والذين يستحضرون هذه المناسبات الكبرى، وفي قلبها المواقف واللحظات الوطنية الملتهبة، ما يمتد منها في ماضٍ بعيد أو قريب العهد بنا لنقل إن ذكرى عودة الملك محمد الخامس واستقلال المغرب — أقرب ميقات فيه وأنسب — إما يأتي الخطاب منهم رسميًّا أي متعاليًا، أو فئويًّا متحزبًا، أو تعلو فيه نبرة الامتيازية والاحتكارية للجماعات أو الأفراد المقيدين في سجل المقاومة. أما الشهداء — فرحمة الله عليهم — وهم أبطال بلا جدال. وبين هذه المستويات مجتمعة نبدو وكأننا نفتقد إلى خطاب توافقي حول ما لا يحدث أو لا ينبغي أن يحدث فيه الاختلاف عادة، بالرغم من عظم الآمال واتساع المطامح. كما تبدو المناسبات المعنية شبه معزولة عن عموم الناس، عن الشعب، منطلقها ومحركها. مرجع ذلك أن المنابر الرسمية والسياسية والنخبوية الأخرى، سواء في احتكارها للسلطة، أو لمبادئ ومفاهيم العمل السياسي، تكون قد تراخت صِلاتها بمحيطها الحيوي بشريًّا وفكريًّا، وكفَّت عن الإشعاع بروحه، فيما هي تتوهم، أو تتبجح أنها الناطق الجهير باسمه المعبر عن هويته.

ونحن نذهب إلى أن المشكل يكمن في وجود أو غياب — قل هشاشة — الأرضية الثقافية، نراها القاعدة الضرورية لإبراز وتبجيل أي مناسبة، ولحصر معانيها، بدون ذلك ستطفو على السطح شعارات، وتلتمع عناوين سرعان ما تنطفئ. ليس ما نقول تجريدًا؛ فإن الاحتفال — مثلًا — بالذكرى الواحدة والستين لتقديم وثيقة الاستقلال أكدت شطط هيمنة الخطاب السياسي الفضفاض، واكتساح مصطلحاته، ومضامينه لما عداه. لكن هل يكفي الحديث عن الاستقلال والسيادة، ومواصلة تحقيق مطلب الديمقراطية لنعتبر أننا قلنا المطلوب أو أن هذه المفردات التي هي مفاتيح من غير شك تستوعب غيرها وتجيز إلغاءه بنبذه في التجاهل والنسيان؟ وإلى أي حد يمكن تصور بناء ذاكرة وطنية عتيدة تستغني عن اللبنة الثقافية الأساس؟

إن المبادئ الكبرى لوثيقة المطالبة الاستقلال (١١يناير ١٩٤٤م) إذا كانت قد أجملت وعي النخبة السياسية، ورسمت استراتيجية الحركة الوطنية المغربية تجاه المستعمر مباشرة، وإزاء ما ينبغي أن يئول إليه مستقبل البلاد في أفق منظور؛ وذلك كتعبير عن العنفوان الذي بلغته هذه الحركة في منتصف الأربعينيات من القرن الماضي؛ فإن تلك المبادئ لها مقدِّماتها وأُطرها العقيدية والفكرية الأولى التي صيغت بها في حركة إصلاحية بمقولات محددة تعتبر السلفية أكثرها تعيينًا، وهو ما يدخل في تشكيل أو إعادة تشكيل ثقافة مرحلة. مثلما يعني أننا بصدد هُوية ثقافية تتجه هيئة من العلماء ورجال الإصلاح ورجال السياسة — بدورهم — إلى نقل المحيط الوطني بجميع مكوِّناته إلى مجالها ومضمونها الإحيائيين والمجددين — أيضًا — قياسًا بالسائد قبلهما. ومعلوم أن قضية الإصلاح في المغرب، وهي مطلب ما زال مطروحًا بإلحاح من قِبل القوى الوطنية الديمقراطية، إنما وضعت كمفهوم ودعوة منذ العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. وُلدت بحذر واستحياء، لتتبلور — لاحقًا — وعيًا معقولًا ومطلوبًا لدى نخبة ذهبت تقترح مشاريع ومفاهيم إصلاحية، أولًا، لدفع غائلة التدخل الأجنبي، وثانيًا، لمناهضة أوضاع فكرية وسياسية واجتماعية، تقليدية وجامدة باتت تمثِّل تشجيعًا وحافزًا للتدخل المذكور، وعائقًا مستحكمًا في وجه نهضة أو حركة إحياء وتنوير تحديثية للمجتمع.

ولقد تبلورت الرؤية الإصلاحية للسلفية المغربية في مطلع شأنها؛ لتأتي على غرار السلفية العربية المشرقية ممثَّلة في عَلميها البارزين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، هما معًا تريان أن صلاح الدين وتجديد سالف عهده من صلاح الدنيا وإعادة تأويل أحوال المجتمع، كما هي عبارة اليوم. ولم تستلهم هذه الرؤية في تكوينها العناصر الدينية وحدها،

بل انفتحت على جميع مكونات العصر المقبولة لديها، واتجه رواد السلفية المغربية، إما ارتجالًا أو منهجيًّا، شأن الزعيم الوطني العلامة علال الفاسي إلى صياغة منظومة فكرية وإصلاحية تنويرية متكاملة بواسطة ومن خلال «النقد الذاتي» (كتاب الفاسي المؤسس في مجاله)، له نظائر في ديباجات مقالات متفرقة كتبها دعاة راسخون للتحديث أعلاهم كعبًا محمد الحسن الوزاني، وسعيد حجي. والحاصل أن هذا شكَّل القاعدة الثقافية والأرضية الصلبة التي نهضت عليها دعاوى الإصلاح والتغيير السياسي من كل نوع، وهو ما يسوغ لزمرة الدارسين المغاربة بنعت سلفيتهم وتمييزها عن سابقتها المشرقية بـ «السلفية الوطنية».

لقد كانت هذه الحركة، أو روادها على الأصح، واعية بأهمية الثقافة وتأثيرها على تحويل البِنيات وإحداث التغييرات الحاسمة، في ترابط مكين مع المبادرات الطبيعية الحقوقية، والممارسات الكفاحية المباشرة. كما نجحت في أن تجعل المسألة الثقافية من لب صياغة الذاكرة الوطنية التي بدونها ليس الحاضر سوى قشة في الهواء، أو مولود لقيط. في هذا السياق لا بأس من الإشارة إلى ذلك التواشج المكين الذي استطاع وأفلح المغاربة على عهد الكفاح الوطني ضد الاستعمار أن يقيموه بين المقترب الفني التحديثي وبين المضامين والقيم المؤهلة للشخصية الوطنية، وكذلك فعل أسلافهم بُعيد الاستقلال وقد وعَوا أن معركة جديدة قد فتحت، وللأدب، للفكر، للثقافة عمومًا أن تكون حاضرة فيهما بقوة وبصيرة.

ومن أسف أن هذا الموقف لم يقابله وعي مماثل لدى النخب السياسية التي مارست السياسة بكيفية احترافية، ووفق جدول أعمال نضالي خالص مرة، وبراغماتي مرة أخرى. ما من شك أن رؤاها وأيديولوجيتها منبثقة من تصورات نظرية بعينها، ولها بعض السنادات الفكرية يمكن التماس أصولها في عمومياتها، وإن ظلت في غالب الأحيان مشدودة إلى ثقافة الشعار، وإلى المنزع الأيديولوجي بدرجة أكبر. نقول قولنا دون تبسيط لتلك العلاقة الملتبسة الإشكالية القائمة بين السياسي والثقافي في محيطنا؛ لكن الجدلية المفترضة، وبرهن عليها الواقع في مواقف ومناسبات ومنابر شهيرة — من الأفضل أن نسكت عنها في هذا السياق — رجحت دائمًا الكفة الأيديولوجية أو ما يقوم مقامها من شعارات فيها مُتهافت كثير بِتنا نسمعه ممن يفتقرون إلى أي مشروعية تاريخية، وأي مصداقية يومية.

لقد وجد الحقل السياسي كثيرًا من الصعوبات ليتأسس في المغرب، والمفاهيم والمقولات التي وُلدت وتنامت وتجددت في فضائه تتعرض للتشويه والإفقار والتهجين، وعندما

تتعامل المؤسسات السياسية بأيديولوجياتها الموروثة والموضوعة مع هذا الحقل والمنتجين داخله إما كعنصر نافل، أو تابع، أو على سبيل الاستئناس وللترويض، وليس كشريك فاعل كامل ودائم؛ فإنها لا تقلص فقط من أهمية الثقافة، ولا تكتفي بتهميش المثقف، وإنما تحكم على نفسها بالضحالة، وتنعزل في أوهام صياغة هياكل ونماذج وتصورات يمكنها أن تنتسب إلى الأيديولوجي والظرفي؛ لكن أنى لها أن ترقى إلى الإبداع الحضاري الذي ينتجه ويؤصله ما هو ثقافي؛ لذا قلنا ونعيد بأن إحياء الذاكرة الوطنية سيتبددان كالزبَد إذا لم نجعل الأرضية الثقافية أساسًا لهما، فعل السلف ذلك، ونحن الخلف لا بد أن نجدد العهد بهذا الوعي.

المتفوِّهة، مثقفونا الجدد!

لا أبغي حديثًا عن المثقفين في تاريخهم الطويل والمتقلب تقلب الظروف السياسية والاجتماعية التي يمرون بها، والمفاهيم التي ينتجون وتشكل رأسمالهم المعرفي يتميزون به عن القوى الأخرى التي تحكم سيطرتها على الواقع، في قطبَيه السياسي والاقتصادي بالدرجة الأولى. بالمقابل، لا أحد أنكر أن هذا التاريخ يلقي بثقله حتمًا على كاهل كل حالة يوجد المثقفون في مركزها، أو حين يعتبرون أنفسهم مركز ثقل قياسًا بالمراكز الأخرى. وهو منشأ توتر وصراع دائمَين بين أطراف لا تؤمن بإمكانية التكافؤ في مواقعها، وتظل تتنابز بالألقاب، وتتواجه شدًّا وجذبًا بالسلطة التي يريد أن يحتكرها هذا الطرف أو ذاك. لا يوجد تعميم واحد للتاريخ المعني، كما لا تتوفر لوحة ترتسم عليها الخانات والمياسم التي تتوزع هذا الصنف من البشر، الذي يتحير هو نفسه في تعريفه قبل أن تحار في فهمه ألباب العامة ممن يُعتبرون جزءًا من دائرة اهتمامه بالالتزام الفعلي، كما هو الشأن عند المثقف العضوي، أو بالعناية والاستلهام لدى المتعالين في الأبراج، أو الولاية (=الوصاية) وابتزاز الفهم والتوجيه في خانة أخرى.

باستثناء الإغريق— والصين تقريبًا — لا نعرف حضارة أخرى تمكَّن فيها المثقفون؛ فاختصوا بموقع وقرار وحظوة، أي بسلطة، مندرجين بذلك في تصنيف اجتماعي — طبقي — محدد، وهو ما كان — بالتالي — أملى عليهم واجبات محددة، وعرَّضهم بحكم تناقضات الموقع إلى أداء ثمن باهظ أحيانًا. وفي التاريخ العربي الإسلامي لعب الفقهاء والشعراء وكتَّاب الدواوين وبعض المتكلمين — الذين نعني بهم آل التفلسف عامة — لعبوا أدوارًا قريبة من هذه وإن ظلوا دائمًا تحت رحمة جبروت الحكام وأمزجتهم؛ ففي أمة يقوم دينها على عقيدة التوحيد لا مكان — في رأي الحاكم — لتعددية الرأي ومواقع القرار. وفي أوروبا نفسها التي نقرُّ جميعًا بأنها مصدر التكوُّن والتفتُّح الفعليَّين الممتدَّين

لفصيلة المثقفين، لم ينتزع هؤلاء بداية عتق رقبتهم من أغلال هيمنة الكنيسة المتحالفة مع الإقطاع والممثِّلة للسلطة الإلهية، إلا بثمن التكفير وعواقبه؛ لينطلق من ثَم تاريخ جديد تصنع فيه فلسفة الأنوار وبداية مرحلة أخرى في التفكير الإنساني دشنت معه ثورات وإصلاحات في مختلِف مرافق الحياة، وأخذت معه الثقافة ووضع المثقف مفهومًا مؤسسًا على قاعدة التغيير والتجديد والالتزام المقترنة بالتضحية إذا لزم الأمر وهو يلزم.

كيفما كانت الظروف المتفاوتة في المجتمعات العربية الحديثة في الحقبة الاستعمارية وبعدها؛ فإن وضع المثقف العربي انبنى على القاعدة نفسها، ومهما تعددت روافد التكوين وحوافز الفعل؛ فإن رسالة التنوير خطاب جامع مشترك، هو جزء من الخطاب الوطني الكلي. وليست القسمة أو الزوج: سياسي/ثقافي، إلا حذلقة متأخرة، وعند البعض رطانة تخفي كالنعامة رأسها في رمال سياسة أخرى. هنالك خصوصيات وتعيينات متمايزة لكل طرف في هذا الزوج، ما في ذلك شك، وهي من البداهات التي لا نحتاج أن نعيدها على مسمع «العزيز واتسون». في حين نحن في حاجة إلى أن نذكِّر ونعيد إلى الأذهان ما كان عليه المثقف العربي، والمغربي في صميمه، في الإبان المذكور، والإبان الذي لم نغادر بعد اشتراطاته والتزاماته، وخاصة في وقت أصبحت فيه السياسة والثقافة معلنة في المزاد.

لن نطيل في العدِّ والتصنيف، ونخص بالذكر هنا جماعة وضعت في حسابها أن يصبح لها صِيت ولو بحساب إبادة كل ما يعترض خطتها في الطريق. عرفنا في بلادنا المثقف الوطني، والمثقف الملتزم، فالعضوي، والمثقف المصنَّف بالرجعي، والمحافظ، والانتهازي الوصولي، والمثقف المحتال أيضًا، وهؤلاء جميعًا، انتمَوا أو استقلوا، تميَّزوا نوعًا ما بالوضوح وكانوا يحسبون المساحة التي يتحركون فيها بقدر لا بأس به من الدقة والانتباه، إدراكًا منهم بأن محاوريهم، فأحرى خصومهم، لا أغبياء ولا بلهاء، وهم في الأحوال جُلها لا يخفون من أين جاءوا وإلى أين يرغبون في الوصول. وبما أننا في بلد صار كالمختبر أو السيرك من كثرة التجارب والمضحكات فقد طلع علينا — كآخر تقليعة للمثقفين — صنف فهم من العهد الجديد، وثقافة حرية التعبير وحقوق الإنسان، وحتى من النظريات الملفقة للعولمة والحكامة الجديدة وصولًا إلى بيع الخبرة للأجنبي بالجملة والتقسيط؛ فهم أن بإمكانه أن يفتح فمه بما شاء وكيفما شاء، ولذلك نحن نُسمي هؤلاء المتفوِّهة، لا نميمة ولكن هوية تناسبهم ومن الآن إليها ينسبون.

يقول هؤلاء — لا فض فوهم — بأن المغرب يرزح تحت ثقل الماضي، ومنه كثير من الأحزاب والمقولات والشعارات، وأن أوضاع الحاضر تشهد على إفلاس الأمس جملة وتفصيلًا، والسبب هو تفشِّي السياسة في كل شيء وسطوة السياسي حدًّا لا يطاق، وإلا

فانظروا إلى عزوف الناس عن الأحزاب! وأين هي الديمقراطية؟! ومن يطبقها في صفوفه؟! ولماذا لا نستبدل الحقوق والبرلمان بأريكة «فرويد» ودروس «لاكان»؟! وانظر إلى هذه الهرولة من أجل الجاه والخنوع أمام السلطة والحكام! والمطلوب هو نقد كل من قبلنا — من حولنا — ليخلوَ الجو لنا، لنبوس وحدنا يد الحكام، وتعلينا السلطة ملء السمع والبصر أعلى مقام، ولا سياسة بعد اليوم إلا ما نبصم عليه نحن بالسبابة والإبهام!

هؤلاء المتفوهة، مثقفونا الجدد، ورم في جلدنا اليوم، يتكاثرون كالجراد الجوال، ولا يهمهم من يشتري ولكن من يدفع الأول، في الداخل والخارج، وفي السر والعلن، والحَس أنت تاريخك وقيمك الوطنية؛ فإن أشداقهم تنتفخ، ولسانهم يطول على سادة لقنوهم أبجدية الكرامة فباعوها بصك النذالة، لذلك احذروهم، نازلوهم وافضحوهم قبل فوات الأوان، فلا مانع لديهم مقابل أي رخص، أن يعرضوا الوطن في مزاد وأن يبيعوا أختام السلطان!

من المثقف الوطني إلى المثقف المحترف

تمتلك كل ثقافة متواترة التراكم والنمو ومتعددة التكوين متكاملته ومتفاعلة بصفة خاصة مع شرطها الاجتماعي ومحيطها العام، نظامها المخصوص لها، وجملة أنساق ومفاهيم منبثقة من تاريخها وتعبِّر عن صيرورتها عبر نماذج وبصيغ نظرية وأشكال تمثيلية محددة. إن المسالك التي تمر بها والطريق التي تعبِّدها، وخلال ذلك القيم التي تنتجها برموزها ودلالاتها تتحول، مع الرواد والأعلام الذين يؤسسون ثوابتها ويرسون عمدها، إلى ذاكرة مستقلة ومتميزة بتاريخها وعناوينها. وعندئذٍ فإنه يصعب إن لم يكن مستحيلًا تبين أو فهم أي شيء في حياة وسِجل بلد أو أمةٍ ما دون العودة إلى هذا التدوين المسنن.

لا، بل ما لنا لا نقول إن توفر هذه الذاكرة من عدمها لهو البرهان الأول على وجود الثقافة في سياق زماني ومكاني بذاته، وكل حديث عن الهوية بتشكيلاتها المتعددة، وفي مناخنا نحن المتباينة، لا مناص له من الاسترفاد من أصول هذه الذاكرة تعلمه وتحصنه وتعلمه إن عثر أو زاغ، وما أكثر الزيغ وأهله في زماننا هذا وبعض أهله، ممن باتوا يحسبون أن بالإمكان محو اللوح على الهوى، ولا يفهمون أن المحاضري — الذي عز نظيره اليوم — إنما يمحو ليزداد حفظًا، وأن فعل المحو هنا يُعَد شحذًا للذاكرة لا إلغاءً أو استخفافًا بها. وما الهوية غير الذاكرة نفسها. وأما إلغاؤها فلا يمكن أن يتم بضربة لازب، كما يتوهم المجتثون، سواء أخذناها من جذورها أو قطفناها من ثمارها؛ ولذلك يحتاج كل من يقارب هذا الموضوع من أي زاوية أن يحتاط من مزالقه. ليس مردُّ ذلك خطورته القرينة بمعتقدات الناس أحيانًا ومشاعرهم — سأسميها فطرية وهي أقوى ما لدى الإنسان — بل لكون مدلوله يمثل مرتكز وجود، ودليلًا لفهم الواقع، دليل سير للمجتمع، وأداة لاستشراف المستقبل الذي ما تفتأ الذاكرة تتغذى به وتقوى، فتغدو بحكم

هذه التغذية والتمثُّل المستمر لكل معطًى جديد ملزمة للجميع، أو بسلطة أهون مرجعية تاريخية ونسقية لا يسهل تسفيهها من قبل أي عابر سبيل، أو إفراغ محتواها لملئها من جديد بأي تسطيح أيديولوجي أو تطلع نهازي. على أي مغامر في هذه الحلبة أن يعلم أن الهوية التي هي الذاكرة الثقافية ذاتها ليست ولا يمكن أن تتحول آلة صدئة يمكن تفكيكها قطعة قطعة، وبيعها في سوق ثقافة «الخردة» و«الخردوات» أو عرضها بأبخس الأثمان، داخل الحدود وخارجها أيضًا، والسبب لا يرجع فقط إلى وجود حماتها بلا قيد أو شرط، بل وأكثر من ذلك إلى أن النسيان نفسه، وهو دائمًا مؤقت، ينقلب إلى ذاكرة ملغومة سرعان ما تستعيد مبادرة اليقظة وإعادة الوعي بالواقع، بعد أن يتوهم «مزيفو النقود» وتجار بورصة القيم والخردوات «الثقافية» بأن الجميع بات في غيبوبة أو سبات عميق … وذلك، ذلك حين يطلع فيهم فجأة المثقف الوطني، أو، ذلك المثقف القديم! ليذكر للمرة الألف بأن حبل الكذب قصير، وإليكم شرحه ببعض التفصيل.

الذين يعيشون في صحو الضمير ونباهة الذاكرة الثقافية، لهذا الوطن العزيز، وأبناؤهم أيضًا ممن تغذوا من الضرع الوطني؛ يعرفون جيدًا أن تُربتنا أنجبت ورعت نقلة طيبة تولَّت — إلى جانب رجال الكفاح والإصلاح — الدفاع عن مقومات شعب وهوية أمة وحقوق لغة وتراث، وسخَّرت طاقتها لإطلاق مشروع النهضة وغد السيادة تبعًا لمقتضيات المرحلة. هي التي تمثلت في شخصية ونموذج المثقف الوطني؛ إذ في ظروف الاحتلال الأجنبي لا صدقية ولا مشروعية إلا لما يشد عضد الوطن وينافح عن حقه في الحرية والاستقلال. لقد كان هذا المثقف فقيهًا ومعلمًا ومربيًا، ومؤسس مدرسة أهلية للحفاظ على اللغة العربية — لا كما عليه الحال اليوم لإتلافها والإجهاز عليها — وأديبًا كاتبًا يغامر في تجربة الأنواع الأدبية الحديثة من قصة ومسرحية، لا يفهم كيف تكون الكتابة والأدب والفكر والبيان والجمال أيضًا، لغير موضوع الوطن والإصلاح والإحياء والتنوير والتجديد كذلك. وإذا كانت السلفية المغربية قد شكلت إحدى المرجعيات الكبرى للحركة الوطنية، إن لم نقل أقواها، وانطبعت بسماتها حتى اختصت بموضوعها؛ فإن الثقافة وكل ما يندرج في الإنتاج الثقافي — والأدب في صميمه — جُبِل بمرجعية وخصال وحماس زمانه، فكانت على ما نعرف.

لقد كانت تلك أيديولوجية من غير شك كالفطرة والإيمان، ثم تمذهبت لتصبح قاعدة سلوك ونهج كتابة؛ حيث تماهت الذات وشرط أو مذهبية الالتزام. لا بإلزام أو سادنية كما يشيع الغافلون، وإنما باقتناع محض. ورثت الستينيات وما أسست بعبارة اليوم حس

الالتزام الوطني الذي اغتنى بصفتَي، بل بمطلبَي، التقدم والتحرر، وهما المضمون الجديد لوعي الكاتب ومسار الكتابة. لم يزدد هذا السلوك إلا رسوخًا، وتوكيده مع التعبير عنه قوة وعمقًا في العقدين المواليين، وما أكثرها الأدبيات والمواقف التي صاغت هذا الوضع وبنته أيديولوجيًّا ومفهوميًّا وإبداعيًّا، وكان الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، واتحاد كتَّاب المغرب التاريخي والجامعة الفتية والمنابر الثقافية بين مجلات وملاحق ترتاد الآفاق الجديدة، وتتفتح فيها تجارب وتجريبيات من كل نوع. هي ما شكل الأرضية الصحيحة التي نهضت عليها واستثمرتها مواقف ونصوص لاحقة، وذلك خلافًا لدعاوى مطبوعة بالتزوير والافتئات على التاريخ، وبصفاقة في الكذب وتدليس الحقائق لا مزيد عليها، وعلى رءوس أشهاد ما زال دم الحياة ينبض في دمهم ووعيهم فكيف إذا ماتوا، ولن يموتوا إلا بعد التصدي لـ «تسونامي» التسلط على الريادة وادعاء الأمجاد المنهوبة من سير الآخرين.

لكل شيء أوانه، وحسبنا التنبيه إلى أن الانحراف عن القاعدة لا يلغي القاعدة بل يوطد عمادها، وكيفما كانت المعاول التي تضربها فهي لن تسقط بفعل التشويش ومسلكيات التكسب. لقد قُدَّ المثقف الوطني — في مراحله المختلفة — من صخر وصبر وشرف حد المثالية؛ فلا يكون لا بهلوانًا في سيرك، ولا شاة ترعى في عشب السلطة، من غير عداءٍ مسبق ولكن حفاظًا على استقلالية تحصنه من الزلل، وتزوده بطاقة لا تنفد لممارسة وعيه النقدي الذي بدونه لا يكون للمثقف لا وضع Statut ولا اعتبار. وقد شاءت الأيام أن تتقلد فئات من المعارضة التاريخية بعض مقاليد الأمور؛ فوُجد من خُيل له أنها «باعت الجمل بما حمل» وانطلق يلهث نحو أحلام مكبوتة كمنت طويلًا، عجبًا، في إحباط المعارضة، معلنًا عن هوية جديدة مزعومة لمثقف جديد مزعوم، هو الآخر. والحق أنها لم تسِم نفسها وإن تهافتت على بعض الشعارات تنهبها وتسوغ بها استرداد تلك «الفرص الضائعة». وها قد وجد — من هو؟ — ضالته في شعار «العهد الجديد» كناية عن اعتلاء الملك محمد السادس سدَّة العرش؛ فانطلق يكيل المديح، ويبيح المحظور باسم ضرورة مبيَّتة، معتبرًا المثقف التقدمي سلعة بالية، ومُكرسًا جهده للنصب والسلب في زمن حصد الغنائم وشراء الذمم. ولا يكلفه ذلك كثيرًا ما دام يرسل نفسه في جميع الاتجاهات ليعود فيلتقي بها في منعطف موعود بات له اليوم اسم ببراءة اختراع، اسم الاحتيال. وإني لأراه اليوم تنينًا بألف رأس، يبلع ويركع ثم يبلع، ما أحسبه سيشبع ... فوداعًا للمثقفين الوطنيين من كل ضرب، المناضلين والبُلهاء الحالمين ... ومن اليوم، المجد، كل المجد للمحتالين!

المثقف مشجبًا لكل ورطة!

من كثرة ما امتلأت بالمعنى حد الاختناق، وترامَت بين شطآن التفسير والتأويل حتى امتصَّها الرمل، انسرب فيه ماؤها ودمها نزف أيضًا مع أصحابها الذين دفعوا أحيانًا أرواحهم تجسيدًا لها، رأيناها تدريجيًّا، وهي تنقلب أمام أعيننا، وبمساعدة مباشرة منا، تتحول إلى قوقعة فارغة؛ أعني كلمة أو تسمية «المثقفون». أنت تعرفها جيدًا أيها الأخ والمناضل العزيز الأستاذ أحمد لحليمي لأنك خبرتها تاريخًا ومعنى وممارسة، أيضًا، كرجل دولة محنك، ولأنها ما انفكت وسواسًا لديك بحافز الخوف على المستقبل والأمل، كدأبك دائمًا، أو هذا ما لمسته في الحوار المثمر الذي أجرته معك يوميتنا البيضاوية بالفرنسية «ليبراسيون» (٢ مارس ٢٠٠٦م)، وأصدقك القول أني بعد أن قرأته، مستمتعًا بما حفل به من آراء وتحليل، كدت أطويه وأحيله ربما إلى قادم الأيام، صنيع كثير من بني عشيرتي، نحن الذين من أسف نتلهى أكثر بالشفوي ونبخل على محيطنا بالنقاش المكتوب، مما قد ينير السبل ويغفر لنا بعض الذنوب مع هذا الوطن المتروك حبله إلى غارب المجهول، فقلت لا بأس أستفتي نفسي وأسألك وقد أثرت الأشجان في حديث ذي شجون.

في الحوار الذي أُجري معكَ محاور وقضايا عديدة متآزرة، متنافسة في المعنى والقيمة، كلها تعنينا نحن القراء والمواطنين، تُسائلنا وتستحث هممنا للفعل ورد الفعل، وأحيانًا بعد فوات أوان، وخاصة من لدن فئة (فئات) المثقفين الذين يتوجه إليهم الخطاب اليوم — والأمس قبله — كما لو أنها تشكل حقًّا بنية أو هيئة متجانسة في الهوية، متضامنة دائمًا في المصالح والأهداف، وبالتالي يمكن نعتها مباشرة بلا تعقيد أو حذر، وتحميلها المسئولية كلما وقع محذور أو تبدلت الأحوال. رأيتك تتحدث عن صنفين من المثقفين — من غير أن ندخل في أي جدل حول التعريف الممكن لهذا الصنف من البشر،

سنفترض النخبة والاستنارة والفاعلية، بشكل أو آخر — ينتميان إلى مرحلتَين تاريخيتَين متباينتَين، وتقيم بينهما قسمة رياضية حاسمة أغبطك على دقتها، خاصة ونحن في حقل رجراج شديد النسبية وأهلوه معروفون تاريخيًّا بذرائعيتهم، أو انتهازيتهم، وهو توصيف لا حكم قيمة. والواقع أن المثقف عندنا في المغرب مهما أسقطنا عليه من تعريفات وقولبة مذهبية خارجية إنما ظل يتشكل في سبائك الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي لبلاده، يتبادل وإياها الشكل ومحتواه، وإن ظل متوجهًا بالدرجة الأساس إلى الوجود الموضوعي النضالي، ذلك الذي كان حافلًا، كما سميته «بمشاريع المستقبل المنتجة لليوتوبيات»، وهذا منذ الحركة الوطنية وصعدًا في معركة الاستقلال الثانية التي خبرت جزءًا منها وساهمت في تشكيل صورة من «يوتوبيتها».

إن هذا المثقف، كما نتجانس معه ونتماهى في قيمه وسلوكه، كما عشناه ولم ننفصل أبدًا عن هويته ونهجه، عاش وعانى تاريخًا رهيبًا من القمع والترهيب والابتذال، وسواء صمد أو تهاوى في منتصف الطريق؛ لأسباب يطول شرحها، لا يمكن أن نختزله في رجل الأخلاق، والخطيب المصقاع، والحالم في نهاية المطاف؛ أجل إنه هؤلاء جميعًا. لكن المشاريع والمطامح الكبرى للحركة الوطنية الديمقراطية، ما لم يتحقق الجوهري منها حتى الآن، لا يمكن بأي حال أن يطويها ملف المصالحة الظرفية وتحصيل حاصل نظيره حقوق الإنسان. ولست أنا الذي كان يجمع فتات الكلام ليُعِد التقرير الإعلامي لجريدة «المحرر» عن التقرير الأيديولوجي لمؤتمر أنت به عليم، من سيذكرك بأن المسألة هي على درجة من التعقيد — أقول — والألم بالغة. وإنك تتساءل ما إن كان التقنوقراط — بالمناسبة، نحن نستعمل في المغرب هذه التسمية بدون شروط، متناسين أن أصحابها عندنا مجرد خُدام تقريبًا ينفذون خططًا وسياسات أكبر منهم، أي ليسوا مثقفين، حتى وهم حملة شهادات «قد الدنيا» — من عوضوا نموذج مثقف الأمس في عالم تهيمن عليه المتطلبات الاقتصادية وتكنولوجيا التدبير، ونوعًا ما تميل إلى هذا، وأنت أعلم بأن المثقف يكف عن الوجود ككيان، كوضع — Statut — متميز من اللحظة التي يتنازل فيها عن وعيه، وعن استقلاليته، ولا ينفع في ذلك القول بمثقف من «طراز جديد» (كذا).

ثمة مسألتان في حوارك نراهما على جانب كبير من الأهمية، نعني أولًا: العولمة، وترى أنها بتحدياتها وإعجازاتها قد حدَّت شاغل إعداد المشاريع الكبرى للمجتمع (طبعًا، كلمة المشروع هنا حمَّالة أوجه) وحصرت الخطاب السياسي في نطاق وزاوية هما أنسب لمناضلي المجتمع المدني، تعني الدفاع عن حقوق الإنسان. والواقع أن العولمة ليست إلا

عاملًا في هذا التوجه، ولا يمكن أن نعلق عليها، شأن صيغة المثقف الفضفاضة، كل التباسات وضعنا وأشكال عجزنا أو تراجعنا، سواء كنا سياسيين محترفين أو مثقفين «غير مقيدين»، هذا فضلًا عن أننا لسنا بعد مجتمعًا معولمًا، ونعيش على أكثر من مستوى في فضاء استعارات زائفة، قد تنفع للشعر لا لـ «المجتمع الحداثي الديمقراطي» المنشود. إن مفردات مثل العولمة، وثقافة التدبير، والحكامة وما شاكل، هي فعلًا إحدى يافطات «مؤسسة التقنوقراط» ولكنها لا يمكن بأي حال أن تتحول لا إلى بديل ولا مادة للثقافة والوعي السياسيين للتغيير.

أما المسألة الثانية فأخطر، من زاوية أنها — حسب طرحك — تحاول أن تسجن قسمًا من المثقفين، أغلبهم من الأطر الحزبية، في المهام الحكومية والالتزامات الرسمية، في تسيير الشأن العام. لا شك أن ثمة إكراهات معينة أمام كل من يتحمل مسئولية رسمية لا ينكرها إلا السذج، ولكن هل ينقطع المثقف عن هويته، عن كيانه لأنه صار وزيرًا أو مديرًا عامًّا لوزارة؟ هل كفَّ ريجيس دوبري عن ممارسة وعيه لأنه هو، أوجاك أتالي، عملًا مستشارين لمتيران، وأحمد لحليمي نفسه وهو المندوب السامي للتخطيط ما باله يرمي اليوم حجرة في البركة الآسنة، فهل يفعل هذا كمثقف، أم بوصفه تقنوقراطيًّا؟ الحق أن الموقف — الوعي — الذي يصدر منه الخطاب يتدخل بشكل كبير في مضمونه وتوجهه. وبالنسبة إليّ على الأقل؛ فإن ظهور المسلسل الديمقراطي، ومعه انخراط قسم من النخبة في تشخيص هذا المسلسل وإرساء عمده لا يمكن ولا ينبغي أن يلغي وعيها الثقافي، وعي الاستنارة وفعل التغيير، ولا ثقافتها النقدية التي بها ولدت، من أجلها توجد، وأظن بفضلها لا خيار لها في التزام صف التقدم والمستقبل، أو تخسر تاريخها وهويتها، عندئذٍ تُمسي تقنوقراطًا، وهذه مسألة أخرى.

المثقفون، والمعلقون، والآخرون

لا نبغي القيام هنا بأي عملية تفكيك أو تصنيف لواحدة من المراتب التي ينشغل علم الاجتماع الثقافي الجِدي بالبحث فيها، ورسم منحنيات تطورها تاريخيًّا وقيميًّا، وبالعلاقة مع الحقل الاجتماعي المتحول. إن ذلك مهم بلا أدنى شك، وإن كان يحتاج دائمًا إلى تبرير، وأن لا يسقط في نزعة ثقافوية هاجسها النظرية وصنافاتها أكثر من الموضوع ودلالاته. شأن يتطلب بكل تأكيد احتياطاته المنهجية وسياقه التاريخي في كل حين، غير أنه — وفي نهاية التحليل — مرتبط بنسق ذي مفاهيم محددة يمكن إجمالها في الوعي والنقد والالتزام والتنوير، وفي ارتباط دائم مع شروط الواقع الموضوعية، ذلك الارتباط الذي يستمر متحكمًا في المرتبة رغم كل ما اعتراها ويتواصل من تبدل على صعيدي الشكل والأداء؛ هكذا فإن التقنوقراطي — مثلًا — ليس بديلًا عن المثقف التقليدي ولا التاريخي، وإنما هو في عرف ثقافة معينة إما تطوير له، أو تنويع عن صيغة براغماتية، أو إبدال عند الذين ظنوا أنهم أقبروا جميع الأيديولوجيات أو عجنوها في عولمة هجينة، أضحت بدورها أيديولوجيا مغشوشة.

ونحن لحقتنا عدوى التنظير في هذا الباب، انشغلنا به، لا أدري أتعويضًا عما فات من ماضينا الصحيح والقوي في تجسيد موقف ملتزم — يسمى اليوم فاعلًا، وأهله (فاعلين) — أم لأن فينا من يعتقد أن المعرفة «المزعومة» لا ينبغي أن تختلط بالشعبوية، بالمثقفين الشعبويين، في زمن الزمرة المندمجة، أو كل طموحها الاندماج في السرب الجديد. وقد لفت نظري وأنا أفكر في حالنا، أن الذين استعرنا مقولاتهم، وصرنا عبيدًا لنظرياتهم، وهم مراتب شتى، لا ينسون أبدًا النبع أو رأس الخيط. منذ أسابيع ورحى الانتخابات الإيطالية دائرة على أشدها انقلب فيها المجتمع الإيطالي إلى مرجل يغلي بأنواع الصراع كلها، وألقت القوى الاجتماعية بثقلها كاملًا، ليس في المعركة الانتخابية أو بحسابها وحدهما، فهذا

تحصيل حاصل، ولكن من أجل الحضور في المنعطف التاريخي ليوقف الهيمنة الكاسحة لسلطة برلسكوني وآلة حكمه الفاسدة، سياسيًّا وماليًّا وخلقيًّا — أيضًا — أو ستتكرس دهرًا ومعها تنتصر ثقافة الماركتينج والصفقات المرتشية، وسلطة «الميديا» الأحادية، ورهن السيادة والشخصية الوطنية — ما بات بعض عندنا يعتبره مفاهيم عتيقة — بالمافيات السياسية أو بنظامها.

لقد انخرط المثقفون في إيطاليا في معركة مواجهة استبداد برلسكوني بكل ما أوتوا من شجاعة وشرف؛ الكتَّاب، الأدباء، الباحثون، الجامعيون، الصحفيون، الفنانون في جميع تعابير الفن. لا يوجد واحد من هؤلاء الملتزمين نأى بنفسه عن حُمَّى ما يدور، هكذا لم يفُت أومبرتو إيكو — مثلًا — الباحث السيميائي والروائي الذي يستمد حبكاته من العصور الماضية، أن يجلد ظهر الفساد والمزورين في بلاده، يعي أنه يتقدم مشتعلًا نحو النار، بعبارة خلَّنا الشاعر رشيد المومني. كثير من هؤلاء المثقفين ليسوا شيوعيين رضعوا حليب نظرية غرامشي عن «المثقف العضوي» ولا بالضرورة من أنصار رومانو برودي الذي قاد لائحة أحزاب اليسار، وإنما أبناء ثقافة التنوير الغربية الإنسانية، وكما وقف آباؤهم ضد النازية والفاشية يعرفون اليوم أن حرية التفكير والتعبير والعيش بكرامة والدفاع عن الديمقراطية والتعددية من الالتزامات المحددة لهوية المثقف، ولحماية مجتمعهم من السقوط في براثن ماضٍ شرس؛ التزامات سابقة على رطانات يحلو لمثقفين بلا قضية أن يلوكوها في الفراغ.

طبعًا، اسمعيني يا جارة، أصابها الصمم عن سماع ما يجري حولها؛ فإما دفنت رأسها في رمال ماضٍ صار عندها منجمًا تغنيها «دررره» عن «سنتمات» الحاضر أو انشدَّت إلى الغرب الغني بالأحداث والتيارات تقرؤه به وتفكر فيه، ولا بأس أن تفلسفه. أغلب حديث أو خطاب الحداثة في المجتمع الثقافي العربي ضربٌ من التعليق الفائض عن حداثة الآخر، وحواش لا يعتد بها الأصل، طالما هي تعمل بمقولات ومناهج سرعان ما يتجاوزها ليقرأ نفسه كما لا يستطيع غيره أن ينوب عنه في قراءتها. مثقفون كثيرهم لا ينتجون معرفتهم، ولا يرتبطون بالسياق المركب لمجتمعاتهم، هم معلقون على خبرة تقدَّم لهم سلفًا — وليكذبني من يشاء — أفضلهم يسوغ تقارير للهيئات الأجنبية تدغدغ ما تريده سلفًا، ولأنه مرتبط بترسيمتها وأفقها؛ فإنه يعتبر نفسه في قلب العصر، الحداثة، أوَلسنا في زمن العولمة؟! وهكذا فهم معلَّقون، مرة عن طيب خاطر ومرات بألف حساب. فهل استقلنا من واقعنا، لا نفع لنا بما يضيء أو يظلم من حياة شعبه، الذي هو شعبنا،

أم يكفي بعضنا زهوًا إعلان انتسابه إلى ما أسميه «وليمة المجتمع المدني» أو إلى عصاب الكلمات الكبيرة، وسعار النعرات، ليثبت جدارة الانتماء إلى الوطن. لست ملقن دروس، لكن صفاقة الفراغ ورغبة تفريغ زمننا من كل قيمه، والانسحاب من تاريخه، وعرض ما تبقى منا فيه نماذج فولكلورية وأدوات سخرة؛ هذا كله وسواه أكبر من أن يطاق، ولنتركه بضاعة لدى جمهرة الذين يريدون احتراف تعليق مصير بلد بأكمله؛ تراثه، ونضاله، وأحزابه، وثقافته، ولغته، وطموحه بحبل تلك المشاريع والمقاولات.

لا بأس يبقى الآخرون. لا بأس، إنهم الحالمون، الواهمون. فيهم الشعراء؛ ملوِّنو خد السماء بزعفران الخيال، الفلاسفة الملتفون بعباءة المعنى يدق الأرض، لا يحفل بالسفهاء العابرين، الأيدي وهي تفرك حب السنبلة يصبحها قرص الشمس ويمسيها كرز المغيب، يوم تسود الدنيا وتربد الوجوه يتيه الحالمون تشعشع من عيونهم كلمات الأمل. الحلم ليس هو الأضغاث، ولا تعويضًا عن العدم، بل هو انعكاس الغائب على شفافية المرئي، كان محالًا ويغدو طاقة الخيال، هذا الضبط، خيال لا يطال عندما تكمل دورة الحساب والمعادلات والصفقات، تلتحق إن استطاعت به أعمارنا الصغيرة؛ فنحافظ قليلًا على أرواحنا، وكيف نشرب من العين بكف القمر، ولا نقبل الفطام من الحب ونمتحن الكلمات كل شروق، كلمات الأدب والسياسة والغرام، والأسواق أيضًا، أما زالت تفتح أمامنا أبواب العالم المغلقة؛ فإن كفت عن ذلك فعلينا أن نحذر حينئذٍ، فقد سرقها «البرابرة» وهذه أخطر مؤامرة على الحلم.

«تموت الحرة ولا تأكل بثديها»

بِتنا جميعًا اليوم عرضة للسؤال والمساءلة، تتولد منا وحولنا، تناوشنا في الداخل، وتستفزنا بأشكال مختلفة من الخارج، الذي نراه يتحول تدريجيًّا إلى وضع/طرف مستوعب لكل ما يسبقه، يدخلنا فيه. منذ أن استفقنا، نحن الذين ننتمي إلى أمة تخلفت عن المدنية الحديثة ووجوه التقدم العلمي والغلبة العسكرية، منذ أزيد من قرن وحتى الحاضر، على واقع مدلهمٍّ من كل النواحي، تظهر فيه تقاسيم صورتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية، أيضًا، مشروخة كلية في مرآة ماضٍ تليد ومجيد، وحاضر معوق في مشاريع نموه ومطامح تغييره. حاضر انكسرت آمال نهضته في انحسار أفق النهضة كمشروع تاريخي، إحيائي مجيد.

كنا قد طرحنا على أنفسنا في الماضي عشرات الأسئلة، حوَّلنا بعضها لاحقًا إلى إشكاليات، أردنا إجمالًا أن نعثر لها على أجوبة عاجلة بقدر خطورة وإلحاح أزمات نهشتنا من كل جهة. وهو ما شكل أفق ومسعى النهضة التي سعت أمتنا إلى نهج مسارها عبر مسالك وبواسطة اختيارات متعددة ومتضاربة، بُغية تحقيق إقلاع تاريخي. وكلما تقدَّمنا نحو هذا المسعى كبر في أذهاننا «الوعي بالتفاوت» بالتسمية الصائبة للباحث عبد المجيد قدوري، بين ترديا وازدهار الغرب، جمودنا وتحدي مظاهر المدنية الحديثة. بَيدَ أن هذا الغرب نفسه الذي اتجهت إليه النخب العربية والعالمثالثية كلها لتستمد منه أدوات ونماذج التحديث وإعادة الانطلاق على الأصعدة كلها، انطوى في وجوده — إزاءنا — ومنذ البداية، على «صدمة الحداثة» ومعناها أن من تلوذ به ليحررك من جمودك وتخلفك ويأخذ بيدك لتشييد صرح مستقبلك، هو ذاته من يحتلك، ويغتصب السيادة، ويكبلك بالقيود، ما زاد في نفوسنا الإحساس بمهانة مضاعفة.

ما من شك أن الغرب، بصورة مدنيته الحديثة التي شكلت وما تزال مرجعية التقدم الأولى لدينا، ولمخيالنا، أيضًا، هو كل مركب، ويحتاج لأن يؤخذ ويقرأ كظاهرة موضوعية، وليس في هيئة فتية رومانسية نظير تلك النظرة الاغترابية ألقاها هو على شرق عجائبي مفترض. لكن هذا لا يمنع من ضرورة فرز عناصر الظاهرة لتبرز أنسجتها وعلاقاتها الداخلية. منها قيم التنوير ووجوه التحديث وأسباب النمو الاقتصادي، ومثلها مبادئ العدالة والمساواة وإقرار الديمقراطية. إنما منها، كذلك، القوة والتوسع والسيطرة على توجيه وثروات الشعوب المستضعفة، ما صنع زهاء قرن من الاستعمار لهذه الشعوب، آثارها ممتدة بعد.

لم تتغاضَ النخَب الفكرية كلها عندنا عن طبيعة هذه الثنائية المركبة لغرب أُريدَ له أن يتحوَّل غدًا لحاضر مُهان، وإن نزعت إلى الانطواء في ظل أيديولوجية أو ثقافة نصير لها ضد أخرى، بما يرجح اختيارها. هكذا فالغرب ليس واحدًا، وما عاد كذلك، وعوض التوصيف المطلق جرى تداول تسمية الغرب الرأسمالي قابله غرب آخر اشتراكي مناهض للاستغلال الرأسمالي وللاستعمار، وغرب ماركسي أيضًا سيمثل قطبًا جديدًا حتى ولو لم يُحسب عليه جغرافيًّا. بَيدَ أن هذا الأخير نفسه لم يكن معنيًّا بترسيخ نزعة التحرر؛ حيث نشر مظلته بقدر ما عمل، وتحت غطاء ترضيات لحاجات وطنية عاجلة، على فرض هيمنة أخرى ولنزع قرار وسيادة البلدان التي امتد فيها سواء من أوروبا الشرقية أو جنوب شرق آسيا، أو إفريقيا وبعض أطراف العالم العربي، عالمنا — نحن — المتقلب في مهبِّ رياح الاستبداد والولاء للأجنبي، والنزوع للتحرر من إكراهات هذين الوضعَين نشدانًا لوضع أفضل.

إن عمر الانعتاق من الاستعمار التقليدي يسجل اليوم، بالنسبة لأغلبية الشعوب المستضعفة، نصف قرن أو أقل أو أكثر. لكنه العمر الذي ما يزال مقيدًا، يبقى فيه مطلب ومفهوم الحرية والتحرر معضلة حقيقية في سجله لم ينجز منه إلا النزر اليسير. كما يبدو الطريق الذي يمضي فيه محفوفًا بأعقد الصعاب وأشكل الظروف. ففي العقود التي توالت منذ الخمسينيات المنصرمة، وصعدًا إلى وقتنا، ما أضحى يسمى زمن بعد١١سبتمبر (مظهر عولمة أمريكية كاسحة) انطلقت الحركات الوطنية تقودها النخَب والإنتلجسيات، أصيلة أو متحكمة، لممارسة حق الحرية ونهج خط التحرر، متقلبة في هذا السبيل بين أيديولوجيات وأساليب في الحكم، وإصلاحية وطنية ليبرالية؛ ليبرالية ملفقة، بعثية، عروبية قومية، ناصرية، عسكرتارية انقلابية، واشتراكية، بمفهوم ما أيضًا. في هذه المناحي كلها وبينها قدح طموح الحرية والتحرر بأكثر من زناد، مشتملًا على كل شيء تقريبًا.

وبعد التنبيه للاختزال والتجريد الاضطراريين، اللذَين قد يستغلق بهما فهم بعض مرامي هذا الحديث، نقول إن المعنى — رغم كل شيء — يبقى واضحًا تمامًا، في أن الحركات المذكورة، سواء أمسكت بناصية الحكم — أي حكم — أو بقيت تتعكز على ماضيها النضالي، هي لا تكتفي عندئذٍ بإعلان ما يشبه نعيها — نعي ينسحب على الأفراد والجماعات، وينسحب على الفكرة، وليس على الصفوة التي رغم «موتها» السياسي، لا تقبل التفريط في مصلحة أو سلطة حتى وهي في وضع أوهَى من بيت العنكبوت — بل إنها من بعض الوجوه تنعى المستقبل هو الآخر؛ مستقبل تكالبت على الحاضر الذي تهيئه، قوى استغلال الرأسمالية العالمية، والتوسع الإمبريالي، والمعسكر الاشتراكي المدجَّن، والوطنيات والديمقراطيات الناهضة أو المزعومة في العالم الثالث، وصيغ غيرها لوضع يدعي، بصفاقة، المستقبل شعارًا له فيما يعاند في تثبيت شعار آخر أقوى موشوم على جلده حروفه تجمعها كلمة: إفلاس.

تأتي الحرية على رأس قائمة ما يضربه الإفلاس، وبذا تكون دورة تاريخية مديدة عمرها نصف قرن قد اكتملت عند جل الشعوب المستضعفة، العودة من جديد إلى نقطة الانطلاق المرسومة في لحظة ضياع، بل نزع سيادتها، وقضاء زمن في وهم استرجاعها، وفي بناء الدولة الوطنية بمختلف مقوماتها. وإذا كان العالم الراهن يظهر في صورة الهيمنة المطلقة والتسلط الجبار للولايات المتحدة الأمريكية، كقطب واحد أحادي، لا يكتفي باجتياح المناطق المغلوبة والهشة، بل يوشك على إلغاء الغرب التقليدي (القارة العجوز) من الاستمرار في رسم معالم الغد؛ فإن هذا العالم يبدو كل يوم — أيضًا — وهو يسفر عن وجه مغضن آخر، أقبحه أن تبارك دولة وأنظمة وهيئات وتجمعات نزع القرار منها، وتفويت سيادتها تقريبًا بثمن بخس، وفي أشكال حربائية، ومعها لا تجد نخب معينة أي غضاضة في التفريط فيما راكمته من قيم وحصاد تاريخ وطني، لا تعوزها المبررات والمسوغات والاجتهادات، ليس أقلها أن تتحوَّل السخرة وكراء ماء الوجه باسم واقعيةٍ ما عند المثقفين الذين أضاعوا وجوههم إلى عولمة ممسوخة.

الحاصل أن لا أحد يساوم على حريته، دعك من أن يقايض حرية غيره ممن يحكمه أو يواليه، ابتغاء مصلحة عامة مزعزمة. وقيم العدالة والحق والمساواة، مثل الكرامة والسيادة غير قابلة للتفاوت؛ لأنها جميعها تختبر على محك الحرية الذي لا يقبل الجدل، وإن وجد في أيامنا هذه من لا يضيره في شيء التفريط فيها، فلا بأس من التذكير بأن الحرة تموت ولا …

كان عامًا اسمه ... بن بركة

كان عامًا لا ككل الأعوام. مُذه صرتَ مشدودًا إليه بألف سبب، وليس أنين العمر إلا واحده. يأتيك طورًا مدًّا، وطورًا جزرًا، ليمتد لفحًا، برقًا فرعدًا، وهي صواعق خببٌ في ربوع البلاد. هل كانت الدار البيضاء يومها نهر دم أم سعير شوارع، لتتزلزل المدارس زلزالها، وتثكل الأمهات أكبادها، والنساء أزواجها، وننظر في مراقد أحلامنا صارت مواقد، اصطلى فيها الصدى باللظى، يوم تثقَّب لحمها بالرصاص، ولياليها كلها اصطبغت بحناء المواجد.

كان عام تلاميذ ظنوا أنهم إذ يعبرون سبيل دفاترهم، متسلقين عروق تلال تُرى عالية كالسحاب/واصلون حتمًا إلى رعشة الأنبياء/في ذُرى الكبرياء/وعند همس قريب منهم ثاوٍ في بحر الظلمات/وأن غدًا سيشرق كالشمس يشقشق بالضحكات/وأنهم بهدير النبض الذاهب إلى غدهم/لا محالة يجترحون المعجزات/وإذ بين هذا وذاك، استبيح الملاك/بين أرض وسماء دوَّى قصف الهلاك/وغاضت في دمها محبرة الكلمات.

في العام النصف الستيني ذاك، كنا نحلم بأن نكبر، ونلحظ كل صباح كيف يينع فوق الشفتين شارب خفيف، ربما سنزهو به حيث يسري الحفيف، خلف تنورة لفتاة، علَّنا نلقط من حبها بعض الفتات، والقلوب الطرية تدمى بها، يا له من نزيف! كان العيش صغيرًا والأمل أنَّى لنا أن نحتويه، والدار البيضاء نخوتنا نحن البيضاويين، كانت قبل الدَّك الأول لتبقى بعده. وفي الصباح الأشهَر في مارس من العام النصف الستيني ذاك، لم نكن نبغي ونحن نمضي إلى الثانوية على موعد مع طارق، ربما، أو نابليون في درس التاريخ، غير أن يأتي المساء، لنئوب خفافًا إلى حضن أحلامنا، فنناجي طيفًا يحوم بأجفاننا، ليلة إثر ليلة، ربما هي العامرية ليلى، قوت القلوب تجيء بها شهرزاد، هي طوق النجاة.

في الصباح الذي كان نديمًا للربيع، وكليمًا لخطيف الشعر، يرافقنا عادة في الطريق، يحلِّق فوق الرءوس، أنذرَنا على غير عادته بالنعيق، بعده حلقت مروحيات السلطان، كالطوفان انتشرت فيالقه، وهوت فوق رءوسنا الهراوات، أزَّ الرصاص في شارع السويس، تساقط أطفالٌ رأوا محمد الخامس في القمر كالنجوم، في درب السلطان. لم يبكوا ولم يصرخوا، بل توشحوا بدمهم هذا الصباح، ساروا خلف أجداثهم، ذاهلين من كثرة العابرين إلى قبورهم بلا أكفان. حتى البحر شهق. من كثرة ما ألقوا به من جثث غرق، بأناشيد الملائكة أنينًا في أعماقه اختنق. ثم عادوا فضجُّوا. كنت فيهم، إنهم هاجوا وماجوا، لم يكونوا لا ثوارًا، ولا فجارًا، كما صوروهم أو شوهوهم، ولكن موجًا فاض به شوقه إلى اليابسة، إما تلاميذ في عبق النعناع العبدي، أو عمالًا فقراء لهم ثأر وحلف وثيق مع المسغبة، وما أدراك ما المسغبة. طوفانًا هجم الرجال الغلاظ، الأشداء، في الصباح الربيعي الذي كان، وما تلاه، حتى الأولياء هزوهم في مراقدهم، سيدي عبد الرحمن، سيدي محمد مول مرس السلطان، وسيدي بليوط، كأني رأيته ممسكًا بندقية، يضغط على القرص من عين البحر، يرد عن مدينته زحف الغيلان … وهذا، طبعًا، قبل أن يمسي غريبًا مثلي، في مدينته، وجهه إلى المحيط وظهره — شأن تاريخنا — لأي عابر مبوَلة، فيا لهذي المهزلة.

في خريف العام ذاك، أي في الحرف الأول من أبجدية الدخول إلى الجامعة، وصل الناجون من المجزرة إلى فاس «ظهر المهراز»؛ حيث كنا نحن في الأعالي، وهي تحت مخفية خلف العذار. امرؤ القيس بالباب مثل كل العرب، والطرمَّاح، والحارث بن حلِّزة، والسليك ابن السلكة. عقر لنا ذو القروح ناقته، ثم استرحنا إلى نخلة حسبنا فيئها من طول هجير ونجيع خلد الجنان. طاف بنا مثل كل الأنام، طيف منام أحمد المجاطي ومحمد السرغيني يتساندان، هما لنا سارية وجدار وكأس مُدام. شكري فيصل، كالبهبيتي، كأمجد الطرابلسي، والفقيه ابن عبد الله هو وابن تاويت، يُقرئوننا أكذب الشعر، كيف يطرز البيان، عليهم ألف رحمة وسلام …

فجأة، لم نكن قد بتنا في أعالي الظهر إلا بضع ليل، والحلم يسري شهده الأول على اللسان العربي المبين، وإذ يا سادة يا كرام «عفت الديار محلها فمُقامها/بمِنى تأبَّد غولها فرجامها»، قال لبيد بن ربيعة يا فتية شدوا رحالكم، فما أمهلوكم إلا أيامًا، وهذا أوان الشد. وحين نزلنا إلى ساحة الحي الجامعي بفعل نفير أو نذير لم نرَ له صورة، بهرتنا صورته الأكبر: ظهر جليًّا وخفيًّا. أدركنا صوته من بعيد وهو قريب: جئت أودعكم من أول لقاء لأبقى فيكم. أما كيف؟ فلأني مضطر أن أعيركم دمي كي تمضوا في هذا الطريق

— وأشار إلى بعيده — لكن، حذار أن تنسوا فهو دَين عليكم رده في الوقت المناسب، أو سيلاحقكم أنتم وأخلافكم كاللعنة، وسيعيثون في الأرض فسادًا، ويفعلون بهذا المغرب الفعائل، فحذار! والآن، كما ترون، أخذوني بلا كفن؛ ولذا سأتطهر للمرة الأخيرة بدمي وأمضي، وهو في عنقكم. ومن يومها تعلَّمتُ الغضب؛ لأني فعلًا صافحت بن بركة وأنا فتًى، في الصحو لا في المنام، قبل أن يغتصب. من يومها عرفت أن حنجرتي وُجدت لتصرخ بملء فمي ضد المرَدة، السفلة، وقلمي، أي قلم لن يوجد، لن يكون حرًّا إلا إذا ندَّد وصاح في وجه القتلة: أنتم القتلة!

عبد الله إبراهيم: الدرس الآخر

رحل السياسي والقاصُّ ورجل البيان، الوطني المغربي الكبير الأستاذ عبد الله إبراهيم ملتحقًا بزمرة من خيرة رجال العلم والسلفية الوطنية ولفيف الشهداء، الذين أبلَوا البلاء الحسن في خدمة هذا البلد، وصبروا وصابروا محافظين على مِلتهم ومبادئهم مخلصين لرسالة تاريخية جليلة وأوفياء. رحل فتجب التعزية لجيله من الكبار أولًا، ولعموم ساكنة المغرب العربي الذين عاش الرجل طيلة حياته شعلة بينهم حاملًا أحد ألوية نضالهم، صامدًا وسط الإعصار، كما أحبَّ هو أن يسمي طراز حياته.

والتعزية هي للوفاء وللاعتبار، وبدونهما يستتب النسيان الذي ليس غفلة الذاكرة وحدها، بل يصير وبالًا على أهله، وأي وبال. وإذ نعلم أنه لا رادَّ لقضاء الله، يتلقاه المؤمنون بالصبر الجميل؛ فإن رحيل الكبار يدفعنا، ينبغي أن يدفعنا، للتفطن ولتأمل أحوالنا، بعض حاضرنا على ضوء ماضينا، ومحاولة استيعاب وتركيب تاريخنا من خلال ملامح هؤلاء الذين نراهم يرحلون تباعًا وفي سيماهم ترتسم مشاهد تاريخ حيٍّ صاغوه وعجنوه بدمهم وأعمارهم وجذوة علمهم وما اعتنقوا من مبادئ سامية، أنارت لنا الطريق برفقتهم، ونأمل أن تهدينا كذلك بعدهم، وهم الشهداء — المخلصون — في جنات النعيم.

وإن من مفارقات الدهر أن نجد — أحيانًا — في الفقدان ولادة، أو إسهامًا في ما نحن في حاجة إليه دائمًا من إعادة تأسيس الحياة وتجديد إهابها، وهو ما لا يتأتى إلا بتشخيص ظواهرها القوية ومُثلها القويمة، وبالخصوص استحضار الماضي في مرآة الحاضر، واستطلاع صورتنا نحن عبر تلازم حميم. إن موت الكبار، وإن تمثل فقدًا في أوانه إلا أنه كسب، أو هو صورة حياة أخرى في امتداده، ما يحتاج دومًا إلى تأمل الوجود بطريقة مركبة ومتفاعلة. وجود يحتاج إلى الزمنية ليتحقق، وهذه تتشكل بداهة من الأضلاع الثلاثة للزمن؛ الماضي والحاضر والمستقبل. وعلى الرغم من تحققها البدهي

في التصور العام إلا أنه لا وجود لأي ضلع منها إلا بإعادة إنتاجه في التصور الذاتي المنبثق من واقع فعلي ينشئه مؤسسو التاريخ وبناة مراحله المختلفة. إننا نعني التراث، أو كيفية توليده، هذه التي لا تنتج عن طي الصفحات تباعًا، كما في الفهم الميكانيكي للزمن، ولكن — بالأحرى — عن تخلق وعي بعملية الطي الحتمية بحكم التسارع الضروري لمجرى التاريخ. وبالنسبة لأمة، لوجود شعب؛ فإنه يحتاج إلى سياقاته الوقائعية بفاعليها ومغازيها ومعضلاتها، ثم بعد ذلك إلى اندراجها في نسق تاريخي شمولي يعتبر العامل المكمل الضروري لصنع الهوية الوطنية.

إن رحيل علم من عيار عبد الله إبراهيم، شأن وطنيين كبار أفذاذ في طليعتهم علال الفاسي، محمد بن الحسن الوزاني، المهدي بن بركة، عبد الرحيم بوعبيد، ورعيل آخر من رجال المقاومة والنضال الوطني الديمقراطي ممن شادوا. إن هذا الرحيل ليسجل اليوم صفحة جديدة مشرقة وغنية بالمعاني في كتاب التاريخ المغربي المفتوح، كتاب التراث الذي أسهموا في تأليفه، واطراد فصوله، وخصوبة مضامينه، وتعدد عناوينه. عبد الله إبراهيم الذي استهل نضاله منذ ثلاثة أرباع قرن خلت وأسلم الروح وفي أعطافه نبض لا يخفت لوطن متوثب، حفر خطه في المجرى العام، وبالخاص اختلف مع نفسه ورفقته، لكنه اختلاف الباحث لا المفارق أو المرتد عن طريق لا يزيغ عنها إلا هالك، لكي يلتقي دائمًا بمصيره ويده تقبض أبدًا على جمرة الإيمان، وهو يعلم علم الحكيم أن التاريخ العظيم، ما يدخل في الذاكرة الجماعية — التراث — يصنع من المصير المشترك فيما التفاصيل تذروها رياح الأيام. لقد كان الرجل قريبًا منَّا — من بعضنا — باديًا كأنه رحل وحده عنا ربما ليختبر وعينا وإحساسنا بالزمن الوطني، وإن ظل في الحقيقة شديد اليقظة، حريصًا على تنبيه الأوفياء لهذا الزمن بأن عليهم الإسهام في بناء تراث هذا البلد، ذلك ضمان مستقبل الوطنية فيه، ورحل وكأنه يمد للقلقين والحيارى والمتقاعسين — أيضًا — مرآة حياته لينظروا فيها قليلًا أو كثيرًا، عساهم يفهمون معنى أن تكون وطنيًّا ومواطنًا ذا تراث.

في مطلع سبعينيات القرن الماضي أثناء إعدادي رسالة جامعية عن القصة القصيرة بالمغرب، قادتني حفوري إلى اكتشاف نصوص قصصية للراحل عبد الله إبراهيم منشورة بين ١٩٣٧ و١٩٤٠م، أي في حقبة مبكرة هي عمليًّا المرحلة الجنينية لتخلق هذا الجنس الأدبي في تربتنا الأدبية. كانت في حقيقتها خيوطًا وأمشاجًا من قص أو ما يشبهه، تتوسل الفن شكلًا أما غايتها الأم ففي ما تروم إليه. أذكر أني فرحت كثيرًا بهذا النسج أراني متعجبًا متحيرًا مضطرًّا لمقابلة السياسي بالوجه الثاني له، الثقافي–الأدبي، غير قادر وقتها

على النظر إلى الاثنين مجتمعين في لحمة واحدة، شخصية المثقف الوطني الملتزم، ذاك الذي وقد رهن نفسه لرسالة النهضة ومهمة التحديث، وضع كل الوسائل لخدمتهما، وهو إذ كان قد نادى برفع غشاوة الجهل والتخلف والانعتاق من النير الاستعماري، والانتقال إلى مجتمع راسٍ على أعمدة التمدن السياسي والثقافي؛ فإن هاجس التحديث لديه شمل المجالات كلها، والتعبير الأدبي في مقدمتها — أوليس الأدب لسان العرب — ما ظهر أجلى ما يكون عند جيل علال الفاسي، وعبد الله إبراهيم، والوزاني، وعبد العزيز بن عبد الله. القائمة لحسن الحظ تطول، تبهر بتكامل السياسي والثقافي وجدليتهما الدائمة في المنظومة الثقافية العربية بالمغرب — من جهة — وبتأهيل الأديب دومًا في المعمعة التي تخوضها أمته — من جهة أخرى — لا يهجع إلى كلمتين أو سطرين مرقعين يحسب أن الدنيا ستقوم بهما ولن تقعد.

نشر عبد الله إبراهيم قصة بعنوان «تأسيس» في فبراير سنة (١٩٣٧م. المغرب)، حبكتها غرامية ومادتها تاريخية، تسترجع أسباب وأجواء بناء جامعة القرويين. ولقد تبدت لي الرسالة واضحة من وراء هذا القص الفطري في طبع صاحبه، العميق في منظوره، وهو يربط صحو الحاضر وشرط نهضته — قياسًا بمجده الغابر — على قاعدة البناء، لقد فهم الرجل بنضج معنى التراث وساهم بقوة في تشييد صرحه، وإننا لمدينون له، لجيله، للمنحدرين من هذا النسب الأصيل بكثير يعجز اللسان حقًّا عن عده ووصفه. لكن الاعتراف به ممكن، ومنابر التعليم والتثقيف والتنوير كافة مدعوة، ونحن نجدد العهد بحماس بناء النهضة العربية المغربية، لكي تطلع جيل الحاضر وتثقفه بلغة وتراث الأجداد، لكي يعرف أنه لن يرفع رأسه أبدًا عاليًا في السماء إلا إذا أحس بجذوره الممتدة في تربة التاريخ — شأن عريق الأمم — وجديرها بالحياة، ورحمة الله على أساتذتنا سادتنا الراحلين.

من يخاف ... أحمد المجاطي؟!

كُتبت في الذكرى العاشرة لرحيله

أحمد المجاطي، للذين لا جايَلوه ولا عرفوه، مغربي من مواليد الدار البيضاء سنة ١٩٣٨م. فيها تلقى تعليمه الأول والثانوي، ورحل إلى دمشق العروبة، أيام كانت تُشد إليها الرحال، فيها دخل كلية الآداب بها، ومنها تخرج أوائل الستينيات، وعاد إلى وطنه ليعمل مدرسًا للغة العربية، وأستاذًا مساعدًا في كلية الآداب بفاس، عند نشأتها ليكون في مقدمة فرسان ظهر المهراز، فأستاذًا بآداب الرباط، وقد دافع عن رسالتَيه الجامعيتَين لنيل دبلوم الدراسات العليا ودكتوراه الدولة، خصصهما لدراسة الشعر العربي الحديث؛ فأفاد فيها وجدَّد واضعًا اليد على الإشكاليات الكبرى والخصائص المائزة لأهم التجارب في إبداعنا المحدث.

كان توجه أحمد المجاطي — وهو اللقب الذي غلب عليه بعد اسمه الرسمي (المعداوي) في السجل المدني — إلى دراسة الشعر منسجمًا كليًّا مع ثقافته الأصلية ونزوعه الفطري إلى النظم؛ فهو ترعرع في البيئة الأدبية للمدينة القديمة للدار البيضاء، وأخوه مصطفى المعداوي الذي رحل مبكرًا في حادثة مفجعة، كان شاعرًا مفلقًا، وفي بلاد الشام غرف الشعر من ينابيعه «وأين في غير شام يطرب الحجر!» وهكذا ظل هذا الفتى يهذي، كما قال أجدادنا، حتى قال شعرًا، ولكن أي شعر؟! ذاك ما سارت بذكره الركبان حتى ... امتدت إليه يد المنون في شهر أكتوبر من عام ١٩٩٥م.

هي، إذَن، عشر سنوات مضت على رحيل فارس الشعر الحديث بالمغرب بلا منازع، وأحد كبار فحول الشعراء العرب طرًّا، المشهود لهم حفظًا، الثابت ذكرهم في سجل

التأصيل والتجديد، مجلسه في القدح المعلَّى من اللسان العربي المبين، لم يكن يجد هويته ومغناه إلا في الشعر الجاهلي وامتدادًا إلى منافي البارودي، وهواه قريحته إخلاص للذات والحياة والوطن عزَّ مثيله، ولكم يحتاج أن يتفكر في ذلك المتفكرون. الذكرى اليوم ليست للنديب، ولا مناسبة كأخريات تعلن وفاءً شكليًّا لرجل — لا ككل الرجال — مضى، ولا هي من جانب كاتب هذه السطور انجذابًا حنينيًّا إلى ما كان المجاطي نفسه يسميها بـ «أيام لم يعجم لها عود»؛ ليكن فيها قليل من هذا، بينما الأهم — الأقوى — أن نقرأ من خلال الذكرى خصائص زمن ثقافي وإبداعي ووطني، انتمى إليه الجيل الذي أسس وشاد الحداثة الفعلية التي باتت على كل لسان يتشدق بها العادي والبادي، والبعض يتناطح بها كـ «العتاريس»، بينا هي متجذرة في تربة النصف الأول من القرن الماضي: زرعها الرواد، وسقاها أولادهم فامتدت فروع الشجرة إلى النصف الثاني من القرن يتصاهر قديم بحديث، (أليس عجيبًا أن يكون علال الفاسي العضو البارز في مناقشة رسالة المجاطي الأولى) ومن بعضهما يتوالدان فتأتي الخضرمة بمثابة جسر النهضة، انتقلت عليه قيم التطور ومفاهيم التجديد تلحق المبنى والمعنى، والشكل فيها صنو المضمون، مشدودة الأزر برسالة في منبتها، والإيمان بها والإخلاص لها مهما كلف ذلك من ثمن، حتى ولو كان الرحيل المتعجل الذي اختاره المجاطي ابن هذا الجيل الرسولي الجريح، عن عالم ارتأى أنه يخون قِيمه؛ فانزاح عنه إلى عزلته — تلك — المطلقة.

لا بد أن هذه الذكرى ستوقظ، بل ينبغي فعلًا أن توقظ، في بعض النفوس صدى هموم وذكريات هاربة أو كامنة مؤرقة مقترنة بالسيرة الاستثنائية لهذا الشاعر الفذ. أول من كتب المعلقات المغربية على حيطان ظهر المهراز، وتخرَّج على بنان موهبته المبجلة رهط من المبدعين، قدَح فيهم زناد موهبة فغردوا، أو خاصم فيهم تكلفًا مزعومًا، وعبثًا عاندوا ثم بادوا، حتى لو بقوا في وهمهم يهمعون في جنان الشعر وعلى ضفاف نضال قديم يسبحون. لا بد أن عناده، وتشدده «الشاذ» حرك المشاعر وأثار الفتن أحيانًا، ولكنه كان الوحيد الذي تلتقي حوله الأطياف والطرق كلها أو تفترق؛ لأنه لم يقبل أبدًا — وهو سابق على أمل دنقل — لا صلحًا ولا مصالحة ولم يخشَ في الحق لومة لائم قط؛ فعاش المرجل يغلي، والممسوس بالظلم يندد ويهذي، والجريح في بلد الاستبداد والجبروت، سليل أمة صارت إلى الهلكوت، بصوته الشعري يطلق حشرجة البارود، ويبصق سعلة الكمد.

لأمرٍ ما أحس أن جيلًا كاملًا يخاف أحمد المجاطي، الواقع في منعطف البعث والفناء، يحاول أن ينساه، وحين يرد اسمه يردده على مضض لأنه يخاف من حقائق شتى تثوي

على لسانه، فيما له هيبة وتبقى لدى كل من يملك مثله «قامة ماردة». على مدى عشر سنوات بعد رحيله ندوتان يتيمتان حملتا اسمه ودرسه الشعري (واحدة من تنظيم بيت الشعر، والثانية لرابطة أدباء المغرب، وصدرت أعمالها في كتاب مستقل من منشورات الرابطة). تتذكر الأمم علماءها ومبدعيها الكبار بالإحياء وتجديد الاعتبار من كل نوع، أما نحن، فلأمرٍ ما نميل على الأغلب إلى الوأد والنسيان.

إنها طريقتنا في تشييد التراث. أكيد ثمة في البيت المغربي من يخاف أحمد المجاطي، وإلا لم ...؟ لنقرأ أخيرًا — وعلى سبيل العبرة — هذه الفقرة في ذيل تقديم الرابطة لكتابها عمن لقبته شاعر المغرب بجدارة، وهو كذلك أبو قصيده الحديث:

«حين كنا بعدُ فتيانًا بزغ نور المجاطي في العراء شاعرًا للكارثة في أحلك ساعات بلادنا بعد الاستقلال، فأطلق صوته ليعطي مصيرًا فريدًا لحركة التحرير الوطني، وهو يتخطى تأويل تاريخ اليومي مجسدًا برؤياه الشعرية التوق العارم إلى الحرية ومقاومة السقوط والفناء. (...) أما اليوم، فإن المغرب — وبلغة واحد من عشاق هذا المارد — يقف في حلقه رجال يتكلمون بمعجم آخر، لا يحيا بكلمات الرواد من طراز المجاطي، ولا باندفاع الفروسية المهيضة، لم تترك وراءها غير سحابة من غبار أم بارودة من سراب.»

«حديث خرافة يا أم عمرو!»

حكى[1] أعرابي أن الجن تخطَّفته، وطافت به في مناطقها بين أرض وسماء، وزعم أنه شاهد عجائب وسمع غرائب، وهو ما أخذ يرويه لبني عشيرته الذين ما صدقوا قوله، واستكثروا عليه ذلك فقالوا عنه: «حديث خرافة يا أم عمرو!»

وسُمع عن الشاعر العباسي ديك الجن قوله:

أأترك لذة الصهباء عمدًا لما وعدوه من لبن وخمر
حياة ثم موت ثم بعث حديث خرافة يا أم عمرو!

أما أنا فأعرف طفلة رباطية اسمها ميسان، لعبها يسلي، وهي في خاطري كظلي، لها أسلوب في التفكير طريف، شأن أبيها صديقي الأديب اللطيف. فهي عندما يستعصي عليها أمر، أو تختلف مع نفسها، تذهب وتجيء في صالة البيت واضعة يديها إلى الخلف ورافعة صوتها إلى السقف يعود إليها مع الصدى، وتظل هكذا إلى أن تنسى أو تستعيد كالعقلاء رشدها، أو لا ... أنا مثلها الآن، كل شيء مستعصٍ عليَّ حتى إني لم أعُد أجد؛ فإن وجدتُ لا يشبعني ما وجدت، يظل يهيج بي وجدي لما بعد لَّا أجد. عندئذٍ أستحضرها كجنية رشيقة، أقول لها ماذا أنا صانع يا ميسان بين صبابة تشدني إلى جبل العلم، لصاحب أشهر من نار على علم، ولصاحب أغلى، جبله في «تنقوَّب»، القلب من

[1] قدمت هذه الورقة في ندوة نظمتها المندوبية السامية للتخطيط بتعاون مع المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب حول توقعات المبدعين المغاربة في أفق سنة ٢٠٣٠م، (الرباط، بتاريخ ١٦ / ١٢ / ٢٠٠٥م).

محبته، لو علمت، يذوب؟ تأخذني من يدي، تحملني إلى علٍ ونطير في السماء بأجنحة الملائكة، وتحط بي أخيرًا في هذا المجلس، وتطلب مني أن نمثِّل ونحلم ونتكلم بصوت كالكلام، أو صبيب الغمام، ماذا لو استطعنا أن نغنِّي:

يا سادة، يا كرام، ماذا يملك كاتب إذا تكلم غير الأوهام أو أضغاث أحلام، ولذلك سُمي معادل كلامه عند أجدادي العرب «حديث خرافة يا أم عمرو!» أن نجيء به هنا، لمجلس التنبؤ إما مفارقة، أو إحياء لنبوَّة لها خاتمها ليختمها، كيف؟! فهي بالأحرى مجازفة. أما إن شئتم الحقيقة فهي عندي تعطيل لوقتي، وإبطاء للجموح الذي انطلق عندي منذ ما يناهز ثلاثين عامًا، أي المستقبل الذي ربما تفكرون في الالتحاق به اليوم، أو غدًا، أم تراكم ستحلمون بالإبحار نحو ماذا؟ بهدوء لم أعهده فيَّ، وثقة لم تتخل عني أبدًا، أقول لكم: نحو أمسي. ومن جديد لماذا؟ أعود أقول لأنه لا مبدع حقيقي — رغم نسبية هذه التسمية في هذا الزمن الأغبر الذي يتسلل فيه الأقزام والمغشوشون ليلعقوا في جفان الكبار — إلا ويحاول الالتحاق بزمن مضى، ولا توجد تسمية للرومانسية أو معادل غير النوستلجيا، التي تعني عصاب الحنين لا الحنين الفطري، ومن ثَم فإن أي نبوءة للكاتب (أخاف أن أقول الشاعر، دعك من أن المبدع في مغرب اليوم تحول إلى مزحة لا تقل ازدراءً عن وضع الشعر على العموم)؛ إن أي نبوءة تقود إلى نقيضها، خارج دوافع المنافع الوقتية، أي حيث نجهل أين نمضي، مستبقين سؤال الشغف، وبعدُ، لماذا نصر على أن نمضي، وأنا أحب أن أجدد السؤال الآن أمامكم، إن استطعت أن أصرخ بملء حنجرتي، بالغضب الذي فات، والموت الذي من كثرة ما استقر مات؛ أن أصرخ إنني في وضع من لم يعُد ينتظر شيئًا، ولذا فليس لأحد أن ينتظر مني أي شيء، أنا الذي وضعت بيضي قبل ثلاثين سنة خلَون، ثم أتاها ثعلب فأكل الحمائم، ولذا — أيضًا — أشعر كأني شيخ هرم، في مجلس سيفسد بظله الثقيل على أهله ما هم فيه من مرح، ويبغون لمجلسهم من فرح؛ الأفضل عندي أن أمضي فلا أعديكم بقرحتي الرومانسية، ولكم تمنيت هذا لولا — لولا أني — كما أسلفت، واقع في تقاطع فرقدَين، ولا فكاك لي معهما — معكم — إلا هذا المابين، لا انتهازًا، ولكن اتباعًا لسلف صالح علمنا أننا في الملمات يمكن دائمًا أن نبحث عن مخرج لنا بالجلوس في المنزلة بين المنزلتَين.

تعالوا معي إلى المنفعة قليلًا، ذلك أن افتراضي كاتب سرد أو روائيًّا يطرح عليَّ الوعي بما أفعل، من باب الإدراك قبل التخييل، غير أن إدراكي كروائي ينشد إلى الماضي؛ إذ لا رواية إلا عن ماضٍ اكتمل، أو هي تحقيق أو تعليق صحفي فقط، كما أن الشغل

الأساس للروائي هو أن يسدَّ ثقوب الماضي، أي أن يعيد تخيل ما فات بالطريقة المثلى؛ فهذه هي طريقته في معالجة الغد، والتفاؤل به ما أمكن. ليست الرواية بهذا المعنى الخيال، بل وعي العالم باستعادته متخيلًا، ونظن أنها أفضل وصفة هي لاستشراف الغد. وحين أتطلع من شرفة نصوصي أقول، مثل فيتوريو غاسمان (الممثل الإيطالي الشهير) إن مستقبلي ورائي — مستقبلنا نوعًا ما — وأضيف: الذي لم يتحقق. وإذَن ما العمل؟ خاصة بالنسبة لجيلنا الذي عاش الوطنية، فالنضال والالتزام والقمع وخيبة الأمل والبوار، وها هو اليوم على حافة الصمت الرهيب يحاول أن يصعد من قاع البئر، ليقول، ليحلم — هما عندي سيان — لكن بكلمات جفَّ فيها ماء المعنى، فكيف برحيق الروح؟! للبحث عن جواب ذي منفعة، كما هو المطلوب لهذا المقام، نحتاج إلى المثقف، أو على الكاتب أن يشغل النصف المفكِّر فيه، علمًا بأنه لا يطير في الهواء، إن قدميه راسختان في الأرض ورأسه وَكنٌ تنطلق منه الأسراب كل وقت إلى كل مكان. والمثقف هنا بالتعريف الذي أعطاه Kenzaburo Oé روائي اليابان الكبير (نوبل ١٩٩٤م) «هو ذلك الشخص الذي يستطيع وينبغي أن يتكلم «كهاوٍ» خارج حقل اختصاصه؛ ليذكر بأن هنالك طرقًا أخرى للنظر، ولتصور الواقع، تختلف عن تلك المطروقة في الخطاب المهيمن.» ولا يوجد غير الاعتراض على السائد المبتذل المدجن المكبل للإبداع والحقيقة ما يساعد على هذا المنظور. وعطفًا على هذا نجيز إضافة ما قاله نوبلي آخر (هارولد بنتر ٢٠٠٥م) من أن: «الفرق بين الإبداع الأدبي والفني وبين السياسيين هو أن الإبداع يقوم على البحث عن الحقيقة بينما صارت السياسة ملعبًا للكذب.» معناه أن أحد عناصر التمييز الكبرى بين السياسة والأدب هي الحقيقة. طبعًا هذا مفهوم إشكالي، فضلًا عن أنه نسبي، ولكن هذا الوضع بالذات ما يسمح للكاتب بأن يحشر أنفه «كهاوٍ» في شئون «أكبر» منه، بواسطة الخيال من غير شك، ولكن وهو يسير دومًا على شوك الواقع، يكسر صخره، ويلقي فيه بذور الرياحين والاستعارات. إن الأدب لا يتعالى على التاريخ وإنما هو في صميم معركته، وباستعادة (بنتر) فلكي أكون كاتبًا لا بد أن أكون مواطنًا أولًا. بذا فإن أحلامنا ولدت معنا، وغدنا يسير معنا حذوك النعل بالنعل، لا كساعات أو عقود، وإنما كرؤى ورؤيات، والباقي أتركه لأولئك الذين تعوَّدوا أن يملئوا أشداقهم بالكلمات الكبيرة ليقينهم أنهم يملكون الحقيقة المطلقة عن كل شيء، وهؤلاء ليسوا في حاجة إلى الشعراء والروائيين، هم في غنى عن المجاز والحبكة، عن المبدعين الذين لا يملكون — إن ملكوا — غير الكلمات، بالريح التي تعصف في رءوسهم، يحسبون أن هاجس الإبداع هو

ما سينقذ البشرية من كل مخاوفها. بالضبط، فهذه هي القضية وهو الملاذ في آن: يبقى هاجس البحث عن المعنى، وكل ما أريده في النهاية هو أن تمتلئ كلماتي بالمعنى ... غدًا ... عساه لا يفوت مرة أخرى.

وأنا في طريقي إلى المستقبل، التفتُّ ناحية الطفلة ميسان، التي كانت قد صارت امرأة هيفاء، فوجدتها تُطل من شرفة شقتها، وإلى جانبها طفلة تشبهها، وهما معًا ينظران إلى الأفق حيث مغيب الشمس. أشارت لصغيرتها قائلة: أترين هناك، ذلك الشفق الأخير، إنه عمو أحمد المديني، إنه يُلوح لنا بيده وهو ذاهب، فعلينا أن نودعه أيضًا ونتمنى له رحلة سعيدة، وانظري فقد ترك لنا اللون الأرجواني، وبعد قليل ستسطع النجوم، ومعنى هذا أن الجو غدًا سيكون صحوًا، والسماء زرقاء صافية الأديم.

الجزء الثالث

من يغرِّد بداخلك؟

«أفديه إن حفظ الهوى أو ضيَّعه»

لا أعذَب، ولا آلم من ذكرى تتعتق. تُوغل في زمن انتمت إليه واغتربت عنه لتئوب، عودًا على بدء، مرجَّعة كأصداء حُداء في صحراء عمرنا الفاني. لا أنت تخطبها ولا هي تدنو منك إلا بمقدار ما تحترقان، أو تفترقان، بإمعان صد تتصاديان، ثم في منعطف الولع تلتقيان. آه منه، لهبٌ هي وأنت بقايا الحريق أو كالرماد خفق … انظروا إلى هذي الأعالي، فهي ما أمطرت إلا لأن رملي شهق.

خلتُني من علق. وأنا ماضٍ إليها برفيف من شفق. فاسيَّة الأهداب من (قاع لقوايع) أهدتني رضابها يذوب: «أقولك إيه عن الحب يا حبيبي؟» أم بغدادية كَرخيةٌ تجلب الهوى من حيث أدري ولا أدري ولسان حالي إثرها يهذي: «هو صحيح الهوى غلاب!»

مالي أشط والبلاد حولي هم أهلي ذات اليمين وذات الشمال. ليس أحلى منها طعمًا، عسل سوس، لو ذقته، لأينعت في أحلامها سوسنا، وبحتُ له — القريبة منك هي النائية —: «أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعه.»

لكنهم أجلاف أهل هذي البلاد، بعضهم طبعًا — ربما هي تقسو على من تحب، وتترك أنت للود باقة — جلبوا لهم حبيبًا من أرض العدوان، ونسوا أننا — هي وأنا عرب أبدًا — ولنا اسم وعنوان. فتحوا له أجفاننا، شقوا أحداقنا، وأولوا له، وأجلسوه ليقيء علينا وعلى ما لم يبقَ من أمجاد العرب. لن أسمي كل ذاك الفجور. لا ولن أعيد على مسامعكم تلك التراتيل وذلك المزمور. سأذكركم فقط أن هذا حدث في يوم من أقسى الزمان مما كان أحلى زمان. سأضيف بأن ذكراها — ذكرى رحيلها الثلاثين — مرت شاحبة، مثل أيام أمتنا الغاربة. «بوب مارلي» وحده ضجَّت به الأصقاع — كنت قديمًا أتلوى بموسيقى الريغي، أي قبل أن يصبح الزعيق والنقيق السلعة الرائجة! — وصدحت أبواق ولقالق هذي البلاد بذكراه، بينما من بصوتها كان يطرب الحجر قبل

البشر، أمست منزوية مثلنا، في غربتنا الأبدية ... يا لآلام أم كلثوم، يا شفاء كل قلب مكلوم، طوبى لك، وبذكراك طوبى لنا. فـ «هل رأى الحب سكارى، سكارى مثلنا؟!»

أم كلثوم: اسم، علَم، أكلما سمعته ارتد إليك صدى السنين في حفيف شجوها من شجن وحنين، أم هو المغنى والمبنى وما لا يُنال، ولذا فهي سقيا الماضي مددًا وحريق الشجو غدًا، ولهفة الشوق إليها أبدًا، أبدًا. أم كلثوم، وحده صوتها جغرافيا. أفسح فضاء، ذاك الذي تحققت فيه الوحدة العربية طرًّا، فغفا المغرب تحت أهداب المشرق، وسرى هذا في شغاف المغرب.

ويحَنا نحن الذين انتمينا إلى تلك الستينيات، لقرن أفل. ولجنا الجامعة وفي صدورنا أذان الله أكبر، وبعد أيام تلاه نداءان: من الفسطاط، من قاهرة المعز، واحد لعبد الناصر يؤسس الأرض العربية كأن لم تكن أبدًا، وثانٍ لأم كلثوم يرسل في الكون غناءً غردت به الدنيا سرمدًا. فقمنا استخرنا واستأذنَّا ربنا هيئ لنا من أمرنا رشدًا؛ فلبى النداء. من يومها ناصر وسُومة صارا لنا أبًا وأمًّا، حضنًا ومجدًا وسؤددًا.

أم كلثوم؛ كنت طفلًا في خمسينيات برشيد، وأبي يُجلسني عند عتبة جلبابه. أمامه عدة الشاي، وأرى أطرافه تتهادى. ما بك يا أبي؟ تسأله أم ربما تسألني حَيرتي، فتجيبني الأطراف، وهي تهتز من الشجو والألطاف، أن ما بها هو رجفة من سماع ... وبذاكرة الغد استرجعت ما شنَّفه أمس فجاء: «وُلد الهدى فالكائنات ضياء/وفم السماء تبسُّم وعطاء.» مذ ذاك لم يفارقني الصوت ولا سحر الغناء، ورُحت أتقرَّى جمال الكلمات كما أتملَّى في الوجوه النضرة. من هناك أقطف صورة لأنسجها غدًا بها، ومنها أطبع قبلة على لون اختلج ... عجبي صار صوتًا، ندًى، هو لها، في رحاب بيتنا أشمه شذًى، وكلما رنوت إلى النجم عاليًا هلَّ صوتها فوقي من عليائها وأيقنت أنها هناك حيث رحل أبي ... قطوفها دانية.

عباد الله؛ أنا واحد من جيل تربَّى وتشبَّع بكل ما هو عربي في فنون الإبداع؛ الشعر والنثر والغناء بحق. لئن مِلت إلى عبد الحليم في ضغط مراهقة؛ فقد وجدتني وأنا أصعد سُلم العمر والتجربة، أي محن الدهر، ألتمس أم كلثوم للتنفيس والسلوان جاعلًا منها إقامة الوجدان. كنت قد شرعت أتدرب على فروض طاعة الله، واكتشفت أن الإنصات إلى أصوات الكون دليل لها وواحد منها؛ فتبعتها في رحلة العمر وبين عنفواني وصهد شبابي اشتعل الجمر في حلقي واللهب في قلبي، ودلتني على عنوان اسمه باب الطرب. دفعناه برفقٍ فصرنا في إيوان لا هو أرض ولا سماء، وسيدة فخمة، لعوب السحر تشدو

بين دعاء وغناء، وحولها الأنام، كل إلى حبيب يغدو، والصوت يفترش روحي، تارة يفتح، وتارة يشفي جرحي. وأشارت أخيرًا إلى عنوان اسمه باب الهوى، فقصدتُه عدْوًا، وصوتها على لساني يناغيني: «حسِّيت كأني اتخلقت تاني!»

«ودارت الأيام» … «ومرت الأيام»، كبرنا، وشاخ زماننا، هزمت أمتنا، وانكسرت قلوبنا، وانطفأت أحلامنا، وقهرت شعوبنا، ولا مجرى يجمع دمعنا يا ويلنا، وامتلأت الدنيا بالضجيج، وغطَّى الأفق هول وعجيج، وصارت أنكر الأصوات «عند الله» العذب الطروب الذي يشنِّف الأسماع ولا أسماع. ولم يكُ سبب ذلك أن سفلت الأذواق، ولا أن أمتنا وحضارتنا انقلبت سقط متاع في الأسواق وحسب، بل لأننا نحن الذين أحببناها حد العبادة، أستغفر الله، وطرزنا بها تاريخنا، وزرعناها في سنا العينين، لم نعرف كيف نحافظ على ضوء أقمارنا وشفيف حزننا، وذكاء حبنا، وشرف ذكرنا، فضعنا يا «امرأة ليس لها عنوان». إلا صوتها، وأحمد المديني، واحد من جيل الغرباء، ليس له بعد باب الله «غير فجر من نواصيك» يعبُّ اليوم، كما بالأمس، من لظى شذوك الأعذب، وأنت تصبِّين ونظل نشرب حتى تظمأ الأحقاب «ويظمأ كل ما عتَّقتِ من سحب ومن أكواب.»

صباح الخير يا الحزينة ... مثلي!

سواء تجاورنا أو تباعدنا؛ فإنك مقيمة إلى جانبي. كنت كذلك أمس، وصرت اليوم أقرب. فأنا حزين مثلك يا مدمنة الأحزان، ولأننا — معًا — كما قال شاعرنا العربي، غريبان ها هنا «وكل غريب للغريب نسيب.»

بدأ الكلام ينطق وحده في ذروة صمته، أي حين شفَّ صمتنا لما التقينا — هل التقينا حقًّا أم برجنا الحوتي تنادى في بشرتينا حين لمسني حفيفك — ذراعك المتغضنة قليلًا احتكت صدفة بمرفقي المزغب. من بين كل نساء ورجال الأرض عرفتك، أي أني انتزعتك من حشد متجر «المونوبري»، ظننت لي الحق وحدي في أن أحضنك بنظرتي، وأن أحمي وقفتك في طابور الدفع وأستعجل القابضة، حتى إني كذبت على واقف قبلي بزعم أننا معًا، لأصبح خلفك بجوارك، ألمُّ رعشاتك المتكسرة على الطريق مثل شظايا العمر، وأقتفي خطوتك في تلك الصبيحة الخريفية المشمسة.

لم أكن أعلم أن انتقالي من سكناي في الدائرة الخامسة عشرة بباريس إلى الضاحية الظليلة الهادئة في نويي سورسين، غير بعيد عن «بورت مايو» في منتصف الثمانينيات الماضية، سيجعلني — من غير وعي مسبق — أجاور أدباء وفنانين كبارًا، وأن نهر السين، مجدولًا كظفيرة لغابة بولوني، سيصبح خلِّي، يا ويلي! أما فرانسواز، فلم تكن تراه، ولا هي ترى أحدًا، فكيف ستراني؟! كنت سأبدو ساذجًا، حقًّا، لو استعجلت تعرُّفي عليها وانحشاري فيها، وقلت بلهفة الولهان: Francoise, Françoise, j'ai la chamade لا يليق أن أخاطبها باسمها الشخصي من دون طول تعارف، مثل أي عابر سبيل في أرضنا يلاقيك في الطريق ويهجم عليك بلا مقدمات ألسيي احمد، أمحماد، القرينة! بهمس تلعثمت بأحد عناوين كتبها مكتفيًا بكلمة قوية، دالة، حتى إن شركة سيارات

استأجرتها منها، وفي نهاية الزقاق الذي يصل إلى شارع الجنرال ديغول من جهة نويي — دائمًا — رأيت القفة الصغيرة بيدها اليمنى تهتز، ربما من ثقل ما تحويه من مشروبات، فرفعت بصري أتلقف نظرات قريبة مني، تلقي عليَّ منها مطرزة برعشة لا تفارق شفتيها — كدأبها — وبعينين فسيحتين وحادتي النظرة.

وصلتُ إلى ساغان متأخرًا جدًّا طبعًا، لا بسبب فارق السن وحده بيننا، بل بسبب تلك الشهرة الطاغية التي صنعت منها كاتبة/كاتبًا كاملًا من الضربة الأولى، ممتلئة بجميع الخصال المرغوبة والمستفزة، منبثقة من عصر جديد. في التاسعة عشرة من العمر فقط، أصدرت روايتها الأولى «صباح الخير أيها الحزن» عن دار جوليار (١٩٥٤م)، كأنها القنبلة؛ لتثقب سقف المبيع في عام واحد بأزيد من خمسمائة ألف نسخة في ذلك الزمن يا سيدي. لم تنل ليلى بعلبكي، غادة السمان، ولا خناثة بنونة شيئًا من هذا الحظ؛ ربما لأنهن ظهرن في المكان غير المناسب، ولأن المسألة في الأدب تتعلق بحساسية عصر، وعند ساغان بأخرى خاصة جدًّا.

لم تكن هذه الفتاة التي مشت بساقَين قويتَين لجيل ما بعد الحرب العالمية الثانية متعبة ولا مشجرة الرأس، أو مهمومة القلب بأوزار ما خلفته الحرب، بل هي سليلة عائلة بورجوازية، قدمت إلى باريس الأنوار لتستقر في الضفة اليمنى منها طبعًا؛ حيث الترف بعيدًا عن الصرعات والفورات الطلائعية في الدائرتين الخامسة والسادسة بين شارعي سان ميشال، وسان جرمان. لم تكن بحاجة سوى لقليلٍ من التوازن أو كثير، حسب، لكنها فضلت تكسير الإطار. من طبعها أن تهشم وتتآمر ضد كل من يسجن حريتها، حتى على نفسها تأمرت. روايتها الصرعة، أكثر من محاولة لنبذ التوافق المسبق الذي يمكن للعالم الخارجي وقيمه التوافقية أن يفرضه على الفرد ليدجن حريته، أثمن ما يملك. هل هذا كل شيء؟ كلا، تقول ساغان، مشهرة في بورصة الأدب عملتها التي لن تبلى على مر العقود، وأظنها ستبقى رغم تغييب الموت لصاحبتها في ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٤م. في سنة ١٩٥٤م كتبت في روايتها الذائعة الصيت: «هكذا، فقط حين أكون في سريري والوقت فجر، وليس معي سوى حركة السيارات في باريس، أحس بذاكرتي تخونني أحيانًا؛ يعود الصيف خافتًا وشديد البطء في الظلام. عندئذٍ يصعد فيَّ شيء أستقبله باسمة، وبعينَين مغمضتَين أُحييه: صباح الخير أيها الحزن.»

كيف أمكن لهذه المرأة الرمحية والمتبعثرة، أن تنبثق شعاعًا نفَّاذًا ا، وتكتسح سيلًا عرِمًا في خضم زمن ثقافي وأدبي هائل، تلاطم برياح التحديث العاتية لما بعد الحرب

الثانية، وبأمواج أعلام عمالقة أمثال مالرو، أرغون، مورياك، سارتر، وبوفوار، طبعًا، وأن تنفجر وسط هؤلاء وآخرين مثل قنبلة موقوتة، هي بارودها وضحيتها ورغبتها في آن. وفيما عالم جديد يتأسس، هي لا تريد أن تني إلا ذاتها، بحكايات ومشاغل عادية وعبارات منسقة خفيفة ورشيقة، ستحمل لاحقًا اسم وصفة «الموسيقى الهامسة» قبالة الآخرين الكبار سادة الرواية الجديدة، ممتشقين سيوف النظرية مرتدين مسوح بناة سرد مغاير قوامه العين والمادة ومقاس الأشياء الاستهلاكية التي سيحولها رولان بارت إلى «أساطير».

فرانسواز ساغان على خلاف المدرسة التي جمعَت في الحقيقة خليطًا لم يتجانس قط، فيه كلود سيمون، مشيل بوتور، ألان روب غرييه، لم تبغِ أكثر من رسم مشاعره عبر البوح بمشاعر شخصياتها مثلما يحلو لغيرها رسم الطباع والسلوك. أن تفعل ذلك بمقتضى حياة تتماهى مع الكتابة وهذه بتلك. ما تطلَّب منها الكثير من المقاومة والافتداء، حد متاخمة الكتابة، الفناء والإقامة في عصاب السكيزوفرينيا. غير أنها، شأن بريجيت باردو، مع مراعاة الفارق، كانت كاتبة فضائحية — لا إباحية كما يتصور الطهرانيون السُّذَّج — بإشهار غبة الحياة، والكتابة العارمة كأسلوب حياة، أسلوب في الحياة، لتصوغ جزءًا، نكهة وميسمًا من حساسية عصر، وهو العامل الأساس الذي يسلكها في العقد الفريد للكتَّاب الكلاسيكيين، وهذا على الرغم من تعارض سلوكها مع الرصانة المفترضة للكلاسيكية، كقيمة تتبقى بعد زوال كل شيء.

لعل هذا ما جعل ساغان تُلاحق فناءها المتقدم دومًا في الكلمات الهاربة، تريد اقتناصها لترسلها إلى الأصدقاء «أجمل الاستذكار» (١٩٨٨م) ولاحقًا دائمًا «مع كامل مودتي» (١٩٩٣م). في الستينيات كان عليها، هي وزُمرة من المفتَتنين بالعيش، أن تمجن بجمال في الأبيقورية الباذخة لجزيرة «سان تروبي» في الساحل اللازوردي، ثم لتنسحب من الصخب متخذة من عزلتها مقامًا لكبرياء وحدتها. لا أظن شخصيًّا أن المخدر الذي أدمنت، من كحول أو مكيف أو قمار كان مطلوبًا من أجل الكتابة قدر ما هو السور الضروري للاحتماء من كل أشكال الحياة المهولة الأخرى — انتبهوا، إننا في باريس التي تأكل جميع الأجيال — والاحتفاظ بصفاء السريرة، تذروها سحب الدخان تارة، وتسهو طويلًا وعميقًا في الجَزر البعيد للساحل اللازوردي.

في سنوات إقامتي الأولى العاصفة بباريس، مثَّلت منطقة النورماندي جاذبيتي الأولى. من شدة جمال هذه المنطقة وبديع طبيعتها كان الحبيب المرحوم محمد باهي، أحد

أمراء باريس قلَّ أن يجود الزمان بمِثلهم، يقول: «إن البقر ينظم الشعر هنا، أيضًا.» أما أنا فمَدينة دوفيل فهي ما غدا في النورماندي قِبلتي. غالبًا ما أقصدها بمفردي لأتمتع بكل أنانية بالساحل الشاسع وملاحقة البحر في جَزره. هنا التقيت بمارغريت دوراس وتعارفنا، وهي تخرج تدريجيًّا من خمارها الطويل؛ رغم أنني لست مقامرًا كنت أرتاد كازينو دوفيل، بقامتي ولحيتي القديمة كانوا يظنونني من الربع النفطي؛ أخسر قليلًا وأربح النزر اليسير، فيما أراها هي — أعني فرانسواز — تحرق وتحترق. من الطريف حقًّا أن الشيء الوحيد الذي لم تخسره — غير حياتها طبعًا — هو بيتها في «هونفلور» بساحل النورماندي، غير بعيد عن دوفيل وتروفيل؛ حيث كنت أنسج العمر الجميل. هذا البيت اقتنته فرانسواز من إيراد مقامرة عاصفة في دوفيل، وتدخل الأصدقاء كي لا تبلعه الخسارة والضرائب التي لا ترحم أحدًا في فرنسا وبشراسة. ولم أكن أملك لها شيئًا؛ أنا المغربي العربي القادم من أولاد حريز، زاحفًا كالجراد على الغرب بأحلام هوجاء ابتغاء أسلوب حياة يليق بي كإنسان … وكاتب اليوم وغدًا.

نترك بيت مرغريت في «هونفلور» التي بنَت مقابر مقدسة في رواياتها لجميع عشاقها، وأحس بحفيف بشرة فرانسواز يلامس بصمت متدلِّه حرش صدري وسخونة نفَسي في صباح ضبابي ونحن نغادر البلدة القديمة، عين منها زائغة ونظرة منها نحوي كأنها معاتبة: «جئت متأخرًا؛ أوه، لماذا جئت متأخرًا؟!» ثم رافقتها حتى شفاه الموج، ومعًا ركبنا الرحيل … بحزن.

أمس، استجوبني، أكاد أقول استنطقني مراسل فضائية عربية، ضرب دماغي بكم مطرقة/سؤال. كلها عن دَور المثقف والمبدع والكاتب، ومسئوليتنا في هذا الزمان، ولماذا نقف مكتوفي الأيدي، ورأينا في العولمة، وخليط جليط كهذا. كان يسألني كأني جنرال ينبغي أن يتصدى لأشكال العدوان والطغيان كافة. لم يخطر بباله لحظة واحدة أن يسألني كم امرأةً عشقت في حياتي، أو أي الزهور أحب إليَّ … في الأخير، أنا من سأله: «هل تحب برامس؟» لم يحر الصحفي المستنطق جوابًا، وانتبهت أن فرانسواز هي من طرح السؤال، انبثقت للتو من النهار الذي كان ينهض خافتًا يحاول أن يشفَّ من عينَيها الناعستَين، وكمن يدخل محرابًا تقدَّمت إليها مستقبلًا: «صباح الخير أيتها الحزينة … مثلي!»

قريبًا من زهرة اللوتس ... السحرية

لماذا بقي العرب هم الأقل تمتعًا بالحرية بين مختلف أمم العالم؟ أوَليسوا جديرين بها، ومحرومين منها بسبب تضافر عوامل ومعوقات تجعلهم واقعين في ما يُشبه تأبيد الاستبداد؟ يمكن أن نأخذ هذين السؤالين كأحد المداخل الممكنة لقراءة وفحص أوضاع الحرية في العالم العربي، تلك التي شكَّلت الموضوع الجديد لـ «تقرير التنمية العربية ٢٠٠٤م» ذي العنوان الفرعي «نحو الحرية في الوطن العربي» والذي ينبغي أن نلاحظ، ومن باب المفارقة أو ربما تأكيد صدقية طروحاته، أن قليلًا من المنابر الإعلامية العربية روَّجت مضمون التقرير وتوصياته الكبرى، وهذا في الوقت الذي يوجد فيه إجماع على أن هناك تعطشًا لدى المواطن العربي للحرية في أشكالها ومستوياتها وتعبيراتها المتعددة.

وبالفعل؛ فإن الخبراء العرب واضعي التقرير الصادر عن برنامج الأمم المتحدة للتنمية ينطلقون في عملهم من تعريف شمولي للحرية يستوعب الحريات المدنية والسياسية، والتحرر من كل أشكال النَّيل من كرامة الإنسان شأن الجوع والمرض والخوف. وانطلاقًا من المبادئ العامة التي تقيم أعمدة هذا السجل ترسم صورة مرعبة لواقع الحريات في أوطاننا ينبغي أن تتدبر فيها طويلًا قوى التحرر والتقدم العربية لتزداد إصرارا على نهجها، خاصة أن غياب الحرية أو تعويقها، هي والحكم الصالح، يقيدان تحقيق التنمية والنهضة الأبعد. وعليه فإن أجراس الخطر يمكن أن تقرع للإنذار بالمخاطر وبغية الوصول لما سماه التقرير بـ «الازدهار». في المقدمة، الحريات المدنية والسياسية المستهدفة إما من سُلطات لا تؤمن بالديمقراطية، أو تكرس سلَطًا أخرى تقليدية أو قبَلية أو عقيدية. إن هذا يتمثل في انتهاك الحقوق الطبيعية مجتمعة، السياسية واحدة منها. ويظهر فاضحًا في انهيار الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، ويكفي الاستشهاد بحالة ٣٢ مليون شخص يعانون سوء التغذية، وفي مستوى مذهل

من الأمية الهجائية بحوالي ثلث الرجال ونصف النساء. لنلحق بهذا مباشرة شبكة لعناصر التحريف والتشويش المناوئة من قبيل التخويف، مثلًا من وصول تيارات بعينها إلى السلطة بالطريق الديمقراطي، أو ادعاء الخصوصية المتعارضة شكلًا مع حقوق الإنسان، أو وجود تناقض بين الدستور وقوانين تقيد الحقوق المنصوص عليها إن لم تُلغها.

هذا كله يبدو مشخصًا بكيفية تمكن من معالجه أو التخفيف من بلواه بوسائل شتى، ذلك أن أخطر ما يميز ظاهرة قمع وانحسار الحرية في العالم العربي هو ما نددت به دائمًا قوى التقدم، وتحسسه بشدة التقرير الأممي؛ نعني ما اصطلح على تسميته بـ «دولة الثقب الأسود»، المتمثلة في مركزية قصوى في الجهاز التنفيذي المحتكر لكل السلطات وتوفير آليات مختلفة لخدمة هذا التركيز. الشيء الذي يُفرغ مؤسسات ذات طبيعة تمثيلية ولها صبغة ديمقراطية أو قانونية من محتواها، معطلة دورها، وجاعلة من أخرى، كأجهزة الاستخبارات — مثلًا — أو ممارسات الفساد والرشوة صاحبة اليد العليا. فما بالك بعد هذا حين تنتهج الأنظمة سننًا في تأبيد حكمها، لا على أسس الديمقراطية ولكن فقط برسم برامج شعارية تارة، أو رفع دعاوى وصائية أخرى، أو بزرع نوع من الترهيب يصبح فيه وجود النظام في ذاته صمام أمان في وجه تسعير مخاطر محتملة أو مفترضة، وهو إجمالًا ما أطلق عليه «شرعية الابتزاز» تلغي كل شرعية غيرها ممكنة.

ليست الأنظمة المتسلطة، بأدواتها القمعية المباشرة أو أساليبها المراوغة والمهيمنة، مسئولة وحدها عن وضع تغييب الحريات في العالم العربي، ذلك أن أزمة البنية السياسية سرعان ما تنعكس على التنظيم الاجتماعي الذي يصبح محتضنًا لضرب من الوأد الذاتي للحرية يطبق في التنشئة الأسرية، والبرامج التعليمية، والعلاقات الاجتماعية؛ إنها سلسلة حلقات تصنع نموذج الفرد الخنوع والمستسلم والمدجَّن في النهاية. بينما يلعب النظام الاقتصادي ونمط الإنتاج السائدَين دَورًا حاسمًا في فرض الحكم التسلطي؛ ففي ظل نظام الريع تبرز الدولة بصفة مانحة وموزعة للثروة تضع الجميع تحت رحمتها وتتعالى بحكم ما تخلقه من ولاءات وتراتبات عن كل مسئولية، إلى حد أن شططها يصبح مناعة تتخفى وراءه عشرات. المصالح تدافع عن نفسها وترد عنها كل كيد، ومنه «كيد» مطالب الحرية والديمقراطية. وهذا خلافًا لنظام اقتصادي يعتمد جزء كبير منه على دافعي الضرائب، الذين يحق لهم مساءلة الدولة ومحاسبتها على طريقة تدبير الموارد المالية.

يقينًا أن صورة الحرية في عالمنا العربي، المرسومة والمخططة في ملامحها العامة ليس أكثر، تستدعي مواقف استعجالية لمحاولة تدارك ما أفسده الدهر، اللهم أن يكون الخرق قد اتسع على الراتق. من هنا النفير الذي يطلقه خبراء التنمية البشرية عن أزمة الحرية والتسلط التي نتخبط فيها، ودعوتهم إلى الشروع في إصلاحات سياسية وقانونية للحد من احتكار السلطة وإقرار الشرعية التي يعتبرونها غائبة كظاهرة عامة بالرغم من أشكال التمثيل الشعبي، بنسب متفاوتة. يتعلق الأمر في الواقع بالبدائل أو الإمكانات المتاحة للعلاج بعد تشخيص المرض، هكذا يرسم السيناريو التالي من ثلاث حلقات:

(١) إما لا أمل يُرجى وتبقى الأمور على حالها في الجمود.

(٢) وإما أن تتبلور من الداخل إرادة الإصلاح وتنبثق، بالتالي، خطط التغيير عبر إعادة توزيع الحكم وممارسة حكامة جيدة، ما سيثمر النتيجة المأمولة التي اسمها «الازدهار».

(٣) وإما أخيرًا سيناريو التدخلات القادمة من الخارج. وفي الجملة؛ فإن كل تأجيل للإصلاح أو تحايل عليه سيجعل من استمرار العجز التنموي والقهر في الداخل والاستباحة من الخارج ما يمكن أن يفضي إلى تعميق الصراع ... الشيء الذي قد يدفع بالبعض إلى أشكال من الاحتجاج العنيف تتزايد معها ظروف الاقتتال، والبحث عن تداول السلطة بالعنف المسلح. «ولذا فالأفضل لتلافي الخراب هو التداول السلمي الحقيقي للسلطة من خلال عملية تاريخية يتبناها الجميع ... في السلطة وخارجها.»

برسم الختام نريد لا بأس من التذكير مجددًا من أن هناك إجماعًا اليوم لدى الخبراء الأمميين أو الناطقين باسم النخَب العربية، والحكام قبلهم، على أن الإصلاح لا يمكن أن ينبثق إلا من الداخل. لكن هناك إشكالية إصرار النخبة الحاكمة، والمسئولة طبعًا عما أصاب بلدانها من تردٍّ في العقود المنصرمة؛ إصرارها على أنها وحدها من ينبغي أن يقود عملية الإصلاح بلا أي برنامج أو جدول زمني، وبتهميش القوى الأخرى أو استعدائها. وثانيًا، ألا يجوز لنا في بعض أحوالنا أن نستعير ما يقوله اليوم أبناء البرسترويكا الروسية حين يتحدثون بذهول عن إشكالية وضعهم: «نعم، أُعطينا حرية التعبير، ولكن لا أحد يستمع إلينا!»

عن تلك البناية الغامضة ... لن أحكي

بدءًا، ليس فيما سأكتبه أو أسرده من جديد، غير أنه سيكشف أو يدون مرة أخرى بالقول وبالكتابة. فلا شيء يوجد أو يبقى بدون الكتابة، أي بالحفر والبناء وكمال الشكل من طلاء وزواق وعنوان في الأخير. ما ليس مكتوبًا يظل في الخفاء، في ليل القلب والذاكرة، إما يراود صاحبه فرصة الظهور أو يتقلب على جمر الانتظار. جميع الناس لديهم شيء يقولونه، ولذلك توجد الحكايات الشعبية في ثقافات الشعوب كلها بدون استثناء، وتوجد الثرثرة في المقاهي والنميمة في المجالس. يحتاج الناس إلى التكلم حاجتهم للطعام والهواء، وهو شرط للرؤية، ولهذا قيل: «تكلم حتى أراك.»

تصبح هذه الحاجة عادة ملازمة للكاتب، إما قسرية أو تلقائية، ويرى فيها البعض امتيازًا أو أعطية يُحسد عليها صاحبها؛ فإما أن يسأل كيف يتأتى له القول المكتوب والقوم في هدر دائم، أو يتهافت على الكتابة رهط كان خيرًا لهم السكوت. أما أنا فحين يوجد من يلح بالسؤال يصعِّب عليَّ كثيرًا أن أفهمه أني لا أكتب إلا من أجل أن أخفي، وقت تزدحم أمامي الكلمات والمشاهد فاتنة وسافلة، وتتدافع المواجد والمباذل، أيضًا، وأخاف ما ينبغي أن يبقى سرًّا مكنونًا — كالحب مثلًا — أمرًا مشاعًا؛ تراني وقتئذٍ ألوذ بالكلم أطوي فيه وأخبئ، طالبًا الستر بعد كل شيء وحسن المآل.

وقد تبيَّن لي بعد لأيٍ، أي عندما تخففت من خيلائي، وبدأت أُشرك الآخرين في همومي أو أحاول تفهم همومهم قدر الإمكان؛ تبين أن ثمة ضروبًا شتى من الخفاء والتخفي والإخفاء، سأعفيكم مما بات مشتهرًا منها اليوم وحديثه، كما حقوقه ومؤسساته، على كل لسان. أكتفي، فقط، بما ظهر لي أني أشترك فيه مع قوم يميلون مثلي إلى الطي والكتمان وإن اختلفنا جذريًّا في الوسيلة والأداء. وهنا لا بأس من تبيان الاختلاف حتى ينقشع كل عجب بلا سبب؛ فأنا أشتغل بالقلم، وهم بالآجر والبشر في

آن. وأنا أخفي ما سيعلن أزعم فيه نفعًا للناس، بالترويح والتخفيف عن كروبهم، فيما هم يخفون ويتخفون للتخويف والترويع إذا جد الجِد واقتضى الأمر. أمرهم مختلف عن أمورنا اختلاف منطقهم عن منطقنا، وهذا واحد من أسباب عديدة أدت إلى ما أصبح معلومًا، منعوتًا، بسنوات «الرصاص». أتفق معهم في شيء واحد؛ مذهبهم القاضي بعملهم حرصًا على سلامتنا أجمعين لا مخصوصين، وللحفاظ على القانون، وهذه مناسبة أحيِّي فيها كل حريص على احترام القانون خاصة وأن أشياء كثيرة يمكن أن تحرِّض الآدمي على خرقه، إما للقصاص لكرامته في الحين أو لكي لا يتعرض لهجوم مباغت من اللصوص وجحافل الشحاذين لحظة توقُّفه لدى الإشارة الحمراء إجبارًا.

الحقيقة أن المسألة جد في جد، وسببها ما نقله إليَّ أحد الفضوليين ممن يحبون افتعال المشاكل وجعل الحبة قبة. فإن هذا الصاحب — والعهدة على روايته — لاحظ في أحد الشوارع التي تترعرع بالبناء والازدهار؛ بناية قال إنها فريدة من نوعها، قد لا تسر الناظرين. سألناه: أفي أساسها؟ أفي عمدها؟ أمن علوها وهيئة طوابقها وشرفاتها؟ أم لعلك ما أحببت هندستها وبناءها جملة وتفصيلًا؟ أجاب: لا هذا ولا ذاك، وإنما هي جملة أمور لفتت نظري وشوشت خاطري وذكرتني ببعض ما مضى، نعده مضى ... قال، أما ذاك فشأن آخر، وعليك أن تعلم الآن بأني ما رأيت من قبل عمقًا يحفر تحت بناء كما رأيت، ولا عمالًا ينظرون إليك شزرًا إذا اقتربت من ورشهم كما نظروا، ولا معدات متماسكة وصنعة مهرة ومشرفين مدققين بمثل ما يحيط بهذه العمارة. علقت هذه كلها صدف وفيها الجيد المطلوب للبناء خير من الشقق التي تشبه البسكويت وتتشقق بعد شهر، وعليك أن تدفع عمرك أقساطًا بعدها. عقَّب للتو بأنه لم يذكر الأهم، أو ما جعله يسقط في ألف حيرة، خاصة والصورة لافتة للأنظار ... وبعد تردد أضاف: وفيها مخالفة واضحة للقانون! كنت أعرف صاحبي وقد حصل على المغادرة الطوعية من وظيفته — شأن الآلاف — لم يعُد لديه غير البصبصة والتسكع، فعزوتُ انشغاله لهذا السبب. لكنه ذات صباح أجبرني على مرافقته لمشاركته همه الطارئ والتحقق كيف يخالف بعض الناس القانون في النهار الجهار، وهم لا يبالون.

هكذا ركبنا حافلة كراسيها من القصدير أليَق بالدواب من أولي الألباب، قذفَتنا وراء الطريق السيار في حي حديث العمران، وطفقنا نشاهد عماراته الصاعدة، المتقابلة من الرصيفَين، فيها المكتمل بناؤه وكثير في طور البناء. قال صاحبي إنه يصل إلى هنا مشيًا وقد لاحظ كيف أن جميع الأوراش تحمل ألواحًا كبيرة، بارزة كتبت فوقها التراخيص

الإدارية بالبناء — حسب القانون — وأسماء المقاولة والتعهدات الأخرى ... إلا هذه، قال: انظر، وهو يشير إلى مبنى تبدو اللبنات الضخمة والمعدات الموازية وما أنجز منه أنه سيكون عتيدًا وسيلبي — ولا شك — احتياجات خصوصية. أثارني فضوله فتحفزت واقتربت أكثر، وأيقنت وقد طفنا الورش من كل جوانبه أنه خلو من أي رخصة. اقتربت من عامل أشد نحولة من بشار بن برد في بيته الشعري الشهير، مستفسرًا فنكص كالخائف قبل أن يجيب متلعثمًا: «اخبارها عند اكبارها، أنا غير كنصور طرف ديال الخبز هنا، وكل واحد يعوم في بحره!» مباشرة وقف علينا أربعة صناديد؛ واحد يحمل فأسًا، والثاني مطرقة ضخمة، والثالث جهاز طولكي وولكي، وحيَّرنا الرابع يده مدفوعة إلى جانب من خصره. هذا هو الذي سألنا ما تبغون؟ فاربدَّ وجه صاحبي لا يُحير جوابًا، ولا أعرف كيف حضرت بديهتي، وقد توجست غموضًا وشرًّا، فقلت: احنا غير كنقلبوا على شي برطمة للكرا، وأحسن للبيع، وقلنا ربما ... لا، استأنفوا بحزم، ما هي لا للبيع ولا للشراء، وزيدوا خلفة مع الطريق!

فعلًا زدنا خلفة لا نفهم من أصدر الأمر بمنع التجول وحرماننا من محاربة الكولسترول بالمشي المنتظم. وبعد أن بلع صاحبي ريقه، لا أدري خوفًا أم تعجبًا، بادرني بالسؤال: «هه، ما رأيك في هذا الشي؟» لم يكن لي رأي، والمسألة لا تحتاج أي تهويل من نوع مزاج صاحبي؛ فهؤلاء أناس يبنون عمارة لهم أن يحتفظوا بصلاحيتها لأنفسهم، أما الباقي ففضول، القانون أو الكانون، هذا شيء آخر، وهل من القانون أن تتجسس على ما يُسر الناس وما يعلنون؟! بهذا المنطق حاولت أن أقنع صاحبي، ثم — فجأة — وقد استعدت ولعه بالقصص، استحضرت من عمق الذاكرة قصة قصيرة مؤسسة لقاص الستينيات محمد إبراهيم بوعلو فسألته مناوشًا: «أونسيت» بناية «بوعلو في قصته الشهيرة؟» توقف وصمت مليًّا قبل أن يجيب: «وهل هي قصة تنسى ...؟!» أطرق ليستأنف كالمستدرك: «... إنما ذاك زمن بعيد، ونحن الآن في وقت جديد، أم تظن أن الأمر ربما ...» سايرته: «من يدري ... ربما ... أو شيء من هذا القبيل، بالعبارة الأثيرة لشيخنا المحبوب محمد السرغيني.» وعدنا أدراجنا مهرولين يتبعنا ظلنا أو ظلال، وقد نهيت صاحبي عن الخوض في الكلام غير المباح.

بالكلمات ... ورفيف الأخيلة

لكي تكتب، وإن كنت تقصد سرد قصة بالذات؛ فإنك لا بد في حاجة إلى الخرافة، ما أسميه الانزياح الضروري عن حافة الواقع. هذا ما يعلمنا إياه أبو علم الأدب في الغرب فولفغانغ كايزر. ويقصد الباحث الألماني استعمال الدراسة الأدبية للكلمة بوصفها تعيين مجرى الأحداث، وباعتبارها القالب الشامل الذي ينضوي داخله العمل الأدبي، حين يتميز في خصائصه بهذه التسمية. فلكأنك في تيه، أو تسبح في بحر متلاطم، وتريد دفع ذراعيك بانتظام لضبط إيقاع سباحتك؛ إذ بدون ذلك ستظل تتخبط، ولن يظهر منك إلا القبيح والفوضوي.

من غير هذا، ليس إلا العناد، والإلحاح اللجوج، والإصرار المنفر؛ ما يخوض فيه من يشوهون وجه الحياة، ويجرحون بهاءها بالندوب، ثم يقفون ضاحكين ومزهوين أمام فعلتهم الشنيعة ظانين أنهم خدموا البشرية — أما الإنسانية فشأن آخر — بهذا اللايوصف، فكيف يسمَّى عندئذٍ. ليسوا بالضرورة على وعي، أي صحو بورطتهم. الوعي فطنة وإدراك ينجبان تمثُّلًا نقبض عليه حسًّا، ونتصوره بعد اليقظة في الذهن، شعاعًا يضيء من دواخلنا. فهم واجتراح وإحساس، وإذا كل ما تقع عليه العين حياة، ويلتقطه السمع نبض، وتلمسه الأصابع تشكل، ويتحسسه الجسد التحام بالوجود واختراق له بعد ذلك نحو أبعد منه. هو ذا الوعي الكلي لا يمكن لأي غرٍّ أو دعيٍّ أو طري العود من ناحية التجربة، وضمنها العمر بلا شك، أن يتوفر عليه ويشتمل على مزاياه اللاتحصى، ولن يكون تعدادها إلا تحريضًا على تجاوزها إلى الأفضل منها. وهذا وعي آخر لا يملكه المتعجل من أمره، النهم لأكل الثمرة، لقطفها قبل الأوان، أن يصطبر عليه؛ لذلك لا مفر أن يقذفها في فمه مُرة وفجة، فيما الفن، فيما الجمال، فيما الحياة خلق حسن وتكوين سوي، وقوم بها فاكهون.

سأقول — من نحو آخر — إنه صنو الموهبة؛ رغم التباعد المفترض والمقرر غصبًا بين العقل والقلب. الموهبة تغشاك وتغشاها. لا تطرق إلا باب من يناديها ويناجيها ويفيض من عينيه النور وهو لا يعرف المسار؛ فإن وصلت انفسحت في صدره الأبهاء، وسرى الماء وغرد الطير وأزهرت البلاغة دانية القطاف. ثم ثابر واحترق، وهوى وغوى فغرق، وعاد من ليل الهواجس العميق انبثق … إلى أن لم يبقَ بينه وبين القلب إلا رب الفلق. ثم عاد فأراهما، الموهبة والموهوب، الوعي وصاحبه، يلتقيان في منتصف الطريق، كأن كل واحد منهما يستغيث بثانيه أدركني. وتراهما يمشيان يدًا بِيد، تتشابك الأعين بين أصابعهما خلسة من غيرة وهما ما انفكا يمضيان، وبألم صامت يتقدمان إلى حضرة الجمال. مشحونان بالأمل والرغبة، مجللان بالكبرياء في الطريق الذي يعرف فيه كل موهوب حقيقي رعشة الخلق الفني، وستمسه لا محالة قشعريرة الخوف وهو يحس أنه مهزوم أمام الكمال وعلى أعتابه جاثٍ، وفي الطريق إليه سيفنى، وحتى إن وصل فذاك قدره!

حين «تنتابني» خواطر مماثلة أحس باشتياقي إلى الكلمات، كلماتي الطريدة أو المتباعدة، مثل بذور نجوم في حقل السماء، وهي ستثمر غدًا أقمارًا. في انتظار نورها روحي أرض وسماء. لا أخاف عليها من الهروب ما دامت تعبر دورة خصب. أخاف فقط على وفرة الخصب. أخاف فيض شوق عندي من أن يتبدد قبل أن يلقى خرافته، مجراه ليستقيم له المجرى الذي يصبح له مسكنًا، ومرقًى إلى سماه. وكالفجاءة التقينا. جاءني من خمَّن أن ما أعانيه شبيه بالوحام، وهكذا لا أعرف أي «كورس» وقف على رأسي يتغنى بتلك القصائد البرتغالية البديعة: غزل القرون الوسطى؛ جميلًا محلولًا في غناء الشعب يتنزل أناشيد صداقة Cantigas de amigon تقطر في سمعي:

«آه، أيها الزهر، آه، يا زهر الصنوبر الأخضر،
ألديك أخبار من صديقي؟ آه، يا إلهي أين هو؟
أيها الزهر، آه يا زهر الغصن الأخضر،
ألديك أخبار عن حبيبي؟ آه يا إلهي أين هو؟»

كنت من ينشد في صوت يتعدد، ليذهب إلى أقصى الأرض لعله ملاقٍ هناك هالة أو فيء أحباب. الغياب أسمعه صوتًا يحضر في وجهي ويكلمني. للصوت شكل. للشكل رائحة. للرائحة لون. للون مذاق، فأشرعة تخوض في الماء، وأجنحة ريشها السحاب، وله رغبات تجتمع الآن كلها في جسد، مقبل عليه، أو مدبر عنه، لا مناص فهو المدد. ويحِي،

ماذا أصابني، وأي ابتلاء؟! في لحمي، في همسي، لمسي كغفوتي، ويقظتي فيه، من خافقي ينبض، منه يمتد كل هذا الجسد؟!

«آه أيها الزهر، آه يا زهر الغصن الأخضر
ألديك أخبار من حبيبي؟»

عجبًا كيف في الغياب يتكاثف الحضور، وفي النسيان يهيج التذكر. ونحن الذين سلخنا غضَّ الحياة في الكتابة، ولم نرَ غير رماد أجسادنا وأمالنا يسد الأفق. سنستريح قريبًا عند بال الصيف، لم نعرف الربيع، الربيع ليس لنا، ونرفع وجوهنا إلى السماء، من باب الرجاء عساها تمطرنا أملًا آخر، ولتكن سحابة صيف. ليكن كل ما مضى علامات؛ الرجال الماضون غدرًا أو قبل الأوان، الأحداث الحمراء، أماكن العتمة وزوايا العناكب، وأزمنة عبرت في هتاف فات، وتاريخ كامل هاكه إلى موات. سأقهقه قائلًا: سنكتبه نحن كي لا نموت، ها، ها!!

ليس يأسًا، صدقوني، فسواء انتمى صاحبها إلى الشرق أو الغرب، دعك من مغاربنا، تبدو الكتابة عند مجترحها نوعًا من القدر الممض، يحكم عليه بملاحقة ذاته في ذوات الآخرين أو من خلالهم، أو البحث عبر هؤلاء عن الحيز المحتمل القابل لاحتواء ذاته، سواء على سبيل الواقع أو المجاز. يفعل ذلك خارج دائرة الأمل أو اليأس معًا؛ لأن ما يبغيه يجهله سلفًا، أو يطمره في مكمن الكتمان، لا يذيعه إلا مقسطًا أو مقمطًا بالسحر، يمشي وراءه وهو يكتشف تحليقه في اللحظة نفسها التي يرافق فيها أسراب الطير والعيش والمنية.

لا يفضل الكاتب الآخرين بشيء كبير. تراه يقول هذا لا عن تواضع زائف وإنما ليبعد عنه تميزًا سيثقل على كاهله بلا طائل، وخاصة في بلدان يعتبر الابتلاء بالقراءة والكتابة فيها مضيعة للوقت وامتيازًا متروكًا للواهمين. هناك تفوُّق واحد يستطيع الكاتب أن يدعيه، وذلك حين يتوسوس بكتابته طبعًا، وتغدو حلبته الأولى والأخيرة تقريبًا. إن له أن يزعم — مثلًا — أنه يعيش في الوهم، ومن أجل الوهم. بادعاء مماثل تنفتح أمامه أبواب الحرية، حتى ولو كان مغلولًا بألف قيد؛ ولذا فهو يتهيأ بالقول، يقتات به، ويعتبر — يا للهول! — أن مهمته هي تدبير شئون الحزن بين بني البشر ... بالكلمات، ورفيف الأخيلة!

أمريكا، أمريكا!

نحن الستينيين، تقادمَ علينا الدهر. نحن الذين بدأ وعينا يتفتح في ستينيات القرن الماضي ومنه نخوض عباب عالم لم يَعُد بمقدور أحد أن يعرف الآن إلى أين يمضي. لكننا قدماء ومحدثين بِتنا نسلم أننا نعيش الزمن الأمريكي بإطلاق، إلى حد أن اختفى، أو كاد، من يرى في عبارة «الإمبراطورية الأمريكية» تسمية قدحية أو تشي بأي وبال. اليوم حتى النخاع، حتى الذهول، بل الذهان، وأمس بشفاه الحلم غرد، وكان في بداية التحليق بأجنحة خفيفة الطيران، مرحة تارة، وأخرى جارحة.

نحن أولئك، وخلف تلك الطاولات المدرسية المتهالكة طنَّ في أسماعنا اسم أمريكا للمرة الأولى مقترنًا مباشرة بالدمار، أي بهلاك العالم وفنائه؛ قال مدرس التاريخ ونحن في الكوليج إما ربحة أو ذبحة، وقد فهمنا فيما بعد أنه يقصد الخراب الذي سيلحق بالعالم إن لم ينسحب الأمريكيون من «خليج الخنازير» في إنزالهم المخابراتي الاستفزازي للإطاحة بنظام فيدل كاسترو إبان الأزمة التي حملت الاسم نفسه في ١٦ أبريل ١٩٦١م، وتواجه فيها الردع النووي الأمريكي السوفياتي (كينيدي خروتشوف). لم تسقط السماء فوق رءوسنا يومها لأن المرتزقة الذين نزلوا في Bahia de los cochinos مُنوا بهزيمة ماحقة على يد الرفاق المغاوير، فيما واصلنا نحن تلاميذ مولاي إدريس نتمتع بحريرة بوعياد وسرحات الخيال في سينما بوجلود، بفاس المجيدة يومئذٍ. كان هذا قبل أن نكتشف عالمًا آخر، مدهشًا ومثيرًا، واعدًا ومنذرًا بكل المفاجآت بتينك العينَين الفاتنتَي التصوير لإليا كازان يقدم لنا، ونشاهد ونحن أغرار، فيلمه البديع: «أمريكا، أمريكا!» (١٩٦٤م) مختصر السيرة الذاتية لعائلته التي رحلت مبكرًا شأن الآلاف نحو الـ American dream.

هذا الحلم الأمريكي رعيناه نحن الستينيين منذئذٍ في الخلاء القفر لظهر المهراز، بفاس أيام كانت عامرة ونبض طلاب المغرب؛ إذ أدخلنا همنغوي إلى عشب أنفسنا، هو وفوكنر، وويتمان، وكل أولئك الكتاب المبجلين الذين قبسنا منهم شرارة إبداع إنساني غذى تراث أمتنا وأنعش خيالها. نحن، أيضًا، زدنا على أحزاننا مأتم جون كينيدي، وترمل جاكلين، ولم نستسغ دخول أوسطول أو ناسيس إلى فراش العائلة، عجبًا كأنها عائلتنا. ولأمرٍ ما، ورغم كل الغيظ والصرع — لا الصراع — الطبقي الذي شحننا به رفاق لأنفسهم، متشنجون يتهجون الماركسية، ضد أمريكا وهي تلقي أطنان القنابل على الفيتنام وتحرق بالنابالم النساء والأطفال؛ رغم ذلك تركنا لها ولنا فسحة الأمل بأن ترعوي فتكفَّ عنا شرورها، لا توغل دعمًا لإسرائيل باغتصاب فلسطين، ولا تعترض على حق الأمة العربية في بناء كيان مستقل، وأن تتوقف عن دعم الدكتاتورية ومناهضة الديمقراطيين في بلدان العالم الثالث، ومنها بلدنا المسكين في تلك السنوات المدلهمة. ظل العلم والأدب والفن وحسناوات هوليود، أيضًا، يشدنا بأكثر من آصرة إلى آفاق «العالم الجديد». وفي الأسواق، رغم الداء والأعداء، الحسين السلاوي يتسلسل في العصاري بين كأس الشاي و«سبسي» الأشجان، بصوت مرح أم ساخر أم على الأرجح أسيان، نافثًا: «... ما تسمع غير أوكي، أوكي، كمان، باي باي، المريكان!» وفي ضواحي النواصر، قرب عاصمة أولاد حريز، وفي قلب القنيطرة، ما زالت نسوة يمضغن لبانًا قديمًا متحسرات على زمن مضى، ورجالهم، يا للرجال! يحركون أيديهم في الفراغ بعد أن يئسوا من النبش في حثالة «لاباز» أو زبَّالة المريكان!

وكان يا ما كان، حتى عاد الأسياد الأمريكان إلى عاداتهم القديمة — هل فارقوها يومًا؟ — وبالمختصر المدمر دمروا العراق من أجل «غرض نبيل» — أليس كذلك؟! — هو نحر، عفوًا نشر الديمقراطية، ولا بأس في القتل ومن النهب، وإحراق المكتبات، وتحويل التاريخ إلى غبار، فهُم من سلالة ميكيافيلي، فلحكم المدينة لا مناص من أن تصير قيد أنملة الأمير. ولطرد «الدكتاتور المخلوع» وإقالة عثرة حمورابي، وعبور المها على رِسلها بين الرصافة والجسر، لا مناص بعد استباحة دم العرب من استباحة أعراضهم بالفسق في مضاجعهم، وتعهير نسائهم، وسودمة رجالهم، وابتذالهم حد المسافدة؛ لا بأس من ذلك كله، وبغرائب ما سارت به الركبان عن سجن «أبو غريب»، أُلحِق بها تدنيس القرآن الكريم في غوانتنامو، والأسرار المرعبة الأخرى التي يحتفظ بها السيد رمسفيلد في الأقراص المدمجة للبانتاغون، مع ما يهاجمه من كوابيس جثث الجنود الأمريكيين العائدين إلى قبور حفرها لهم، قبل الرحيل إلى أرض الرافدين، حاكمُهم بوش، وقد نصَّب

نفسه ربًّا للعالمين! إزاء هذا الهول كله لا ولن أيئَس من أمريكا. لا أطمع في القرب من أحد، ولكن الأبواب التي ولجت منها إليها أراها تعود تنفتح، يطل منها وجه Tristan Egolf الكاتب الأمريكي الشاب، الذي أثار زوبعة في سنة ١٩٩٦م برواية «سيد إسطبل الخنازير» معبرًا بموهبة كبار الروائيين وخبرتهم، وهو في مطلع الشباب يتحول — أردف بروايات أخرى لم تقل شهرتها — إلى شاب مناضل ضد جبروت بلاده، وضد بوش بالدرجة الأولى، يتقدَّم المظاهرات المناهضة للتدخل الأمريكي في العراق، والسلوك المنتهج في سجنَي غوانتنامو، وبوغريب، ويواصل حملة بلا هوادة ضد نزيل البيت الأبيض إلى … أن انتحر أخيرًا وهو في سن الثالثة والثلاثين برصاصة في الرأس. وسواء كانت رصاصة إضافية من مسدس بوش أردى بها مواطنًا أمريكيًّا آخر قتيلًا، أم أن للانتحار سببًا مختلفًا؛ فإن سلوك تريستان إلغوف الاحتجاجي، ومثله كثير في العالم الغربي حاليًّا من قبل المثقفين والمجتمع المدني الحق، ليُسائِل العرب، نخَبًا سياسية وثقافية، كيف يقفون شبه متفرجين أمام آلة الاحتلال والقتل والتدمير الأمريكية في العراق؛ فإن حرَّكوا ساكنًا فليرطنوا بين الفينة والأخرى عن الديمقراطية والإصلاح، التي تندم أمريكا قبلهم على استرخاصها في بلدانهم قبلئذٍ، وها هي ذي مصممة على أن تعيد كل المارقين إلى «السراط المستقيم» سراط الذين أنعمَت عليهم أمريكا — هي أمامكم — وأمريكا وراءكم وليس لنا ولكم والله إلا الصدق والصبر!

يسرقون الحياة، والموت أيضًا

لا بد أن الأقدام المحمولة للرجال الحقيقيين الذين مضَوا، بين زنقة الجندي روش وزنقة الأمير عبد القادر، في «التراب الوطني» الخاص بنا نحن في الدار البيضاء، والمسمى بـ «الباطوار» (حي المجزرة القديم)؛ حيث تواصلت صحافة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بإصدار جريدة «المحرر» سنة ١٩٧٥م، بعد منعٍ طال صحيفة «التحرير» سنوات واستمر. لا بد أن نبض خطوات تلك الأقدام معلق في صمت غياب متوجس، على قلق بين عصف البارود وصخب الكلام، وما بين يدي الآن من لغة، خيوط دخان. كنا قد زففنا الرجال إلى أقدارهم وأشهدنا دمهم ودمعنا على الرحيل، فيما أبقينا الخطوة تمشي يخفق بها الريح؛ فإن بدا منها نصب أو عنَّ لها طلب حملناها هنيهة إلى مقبرة الشهداء ... لتستريح ... مؤقتًا، قبل أن نغذي الأرض بشهيد جديد.

هنيهة فقط؛ لأن الرجال لا يليق بهم الوقوف طويلًا بأكفان الغياب، أو استجداء الضراعة من أكفٍّ لم تصافحهم يومًا ولا ارتعشت أصابعها بطلقة الكبرياء، لا ولن تعرف أن الموت المستحق جلال وبهاء. ثم تراهم، ها إني أمشي فيهم، بخطوتهم أمضي لنمضي فيتسع المسير أبدًا أمامنا، السُّرى خلفنا لترى الغدو بنا يسير. لذلك يُرى الرجال منا يغدُّون الخطو يعبرون الحياة بسرعة الومض ليلتحقوا بأطيافهم، أكفهم مخضبة بدمهم، أعناقهم على حدِّ النَّطع لهم دليل.

لذلك قلت دومًا، واليوم أعيد، للذين يصعدون بناية هذه الجريدة في «الأمير عبد القادر»، انتبهوا. خففوا الوطء، فالدرج والجدران والسقف والعمد، لهي من أديم تلك الأجساد. ليس استعارة ولا اجترارًا لأبي العلاء المعري، بل احتماء من هشاشة الذاكرة والخفة اللاتحتمل ... ولأني، قبل هذا وذاك، كنت هناك ورأيت الصرح كيف تشيَّد، شيدناه لبنة لبنة. بنيناها، أجل وسقيناها ورعيناها، مذ ظهيرة ذاك الخميس النوفمبري

(٥نوفمبر ١٩٧٦م تاريخ اغتيال عمر بن جلون) المترقرق ما يزال بالدماء — لما طعن الجهلة الشهيد عمر بن جلون في مقتل — لا يبالي أحد فينا بغد، بمجد، أو فلذة، إذا مات فينا سيِّد قام سيِّد!

لم ينسَ هذا إلا الأغرار وبعض الذين اتخذوا العباطة حرفة، ومعتمرو جبَّة النسيان، وهل يُنسى الذي كان؟! وفي الجمعة الماضي، حين تجمَّع المئات حول جدث واحد من كبار بناة «ترابنا الوطني الخاص» ومن ذوي البأس الشديد للاتحاد، إنما كانوا يحجون إلى ذاكرتهم ويغوصون في البحر اللجب مسبح شهدائهم؛ إنني أعرفهم، سيماهم في وجوههم من أثر ما نكَّل بهم الجلادون، وتداولتهم الزنازين، وتُهن في مضاجع الوحدة والأحزان. فيما أنكر غيرهم، فهل هي الصفاقة أم الجوع المتضوَّر يدفع بعض بني آدم ليقتات من بقول الموتى، بعد أن نهش الموتى وهم أحياء ... والآن يا مصطفى، يا القرشاوي الحبيب الذي عرفت، وخبرت، ومعه عشت، وبه وثقت. يا الراحل أنت إلى سماء الملكوت (مايو ٢٠٠٥م). انتقلت تاركًا في عيني غدير بكاء، وقلبًا مثخنًا بكلوم فجيعة. أنت اصطُفيت فعلًا لرسالتك ونضالك، وحرائق اشتعلت بقدح كفاحك في مواسم وطن اليباس والمسكنة؛ لتضيء نار الوطن الكبرى من أولمب الكرامة. مذ طرقت باب بيتي في مطلع تلك السبعينيات المكبلة بالقيود والمسبلة الجفون يطاردك العتاة أعطيتك سريري، وأبي ستره، وأمي زادنا، صرتَ منا، نحن لك ملاذ لأيام معدودات، وطريقك غدت قبلتنا أبدًا ... يا مصطفى!

لست في مقام الرثاء أو أرثي نفسي. ربما الرحيل جدير بي بعدك إن طاوعني الموت خير من حياة إضافية بتقسيط الهوان، وانتشار السفلة الدجلة في كل مكان. غير أن حق الراحلين عنا أجدر بالذكر مما تبقى من كل الباقين، لا سيما وهم الأحباب من شادوا البنيان. ومصطفى القرشاوي الذي لا يمكن أن يستأثر به أحد، فضلًا عن أنه فوق أي مزاد؛ مصطفى عندي هو المؤسس الفعلي لجريدة «المحرر» إلى جانب الشهيد عمر بن جلون، وهو الذي سيُغذِّي — بعد استشهاد الأخير — النواة الفكرية والأيديولوجية للمسار الحزبي والإعلامي، وسيعرف كيف يشدُّ لها همة الشباب والإرادات المخلصة، يدفعها في غمار تجربة الصحافة النضالية الملتزمة، التي أنجبت أحد أندر وأقوى الإصدارات ومحافل التحليل والتجديد والتنوير السياسي والثقافي المغربية — بل والعربية — في حقبة السبعينيات، وانطلاقًا منها. وعلى هذا الأساس ينبغي اعتبار الفقيد القرشاوي رمزًا للقيم النضالية لهذه الحقبة، في التاريخ الاتحادي بكل تأكيد، وفي المسار

العام لبناء ثقافة تحررية مغربية اشتراكية عربية قومية، ومنها وعلى ضوئها ممارسة العمل السياسي وتنفيذ البرنامج الإصلاحي من خلال المجالات التمثيلية بالوسائل المتاحة فيها. رمز ملك للأجيال ويحتاج أن تتعلم منه، على الأقل ليفقه الذين لا يفقهون شيئًا في تاريخ المغرب الحديث تقريبًا أن ما يلوكونه من نصوص عن حقوق الإنسان والكلام المدفوع الأجر سلفًا، عن صكوك إدانة أو غفران — سيان — روحه وطاقته لمناضلين دبغت لحمهم السجون وشردت أبناءهم عاديات الدهر، وفي ذلك فليتفكر المتسلطون على الكلام — بين السياسة والصحافة — هذه الأيام.

في شالَّة، الموتى يرقصون أيضًا!

إلى الأديب عبد الجليل لحجمري

جاثيًا على الهواء، مجيلًا بصري في مطلق السماء ... لأراكِ ... فأرى الأزرق. أراك في الأزرق. يعود يُلاعبني لونه استدقَّ. جئتِ من غير موعد. جئتِ من ثغر بسمة يرتديكِ الشفق. حواليكِ ومنكِ تفتحت مغاني الألَق. من حسرة فائتة، أم من نظرة فاتكة عدتِ جئتِ، وأنا لا أعرف، لا أملك إلا أسبح باسمكِ، بعد رب الفلق.

في عري السماء رأيتُ أزرقها يلاعب خدك. الهواء يسري إليك، الأفق يدنو ليسمع شفيف الضوء رآني أراه تلألأ في شفتي ... ك. الأرض كانت تمشي. الأرض التي لا تعرف إلا تدور، وقفَت، هفَت فالتفتَت، حولكِ دارت، رقصَت، ثم مادت تحتكِ ارتجفَت على إثرها المحيطات تخلع عليك وشاح الذهول وألوان الغسق.

هكذا نحن نبدو، حين نسير على طريق الكهولة. نناجي الأطياف، ونتوقع دائمًا أن نسمع «صوتًا هاتفًا في السحر». لكن الهمس كان حقيقيًّا وقد حطَّ اليمام على كتفي شالة ذاك المساء. لم يبقَ إنس ولا جن ولا نمل إلا وتنادى بالأريج الذي يرفُّ على شفتيها كل مساء. رآها التراب الغافي فأيقظ الأموات، واستفاق أبو عنان نفسه، امتطى صهوة أزمان خلَت مستعيدًا على مدى نظرة إليها كل صهيل الأبدية. الأسوار سوار لمعصمك، وسعف النخل لتستظل تحته أهدابكِ، واللمسة الجذلى تحيل التراب مِسكًا بين أناملك، وأهل الرباط، نيابة عن أمم الأرض وعن سكان قلبي ما زلت أراهم افترشوا أرواحهم على عتبات بهائك. ليس عشقًا ما أقول؛ فأنا لا أكون إلا في احتمال الجنون، أو لا أكون.

طبعًا من حق كل قارئ أن يسألني دائمًا في مهاد الكلام، ماذا تقول؟ فهل من حقي أن أتكتَّم يومًا عما أقول، وليعذرني مرة، فأنا لست إلا من لحم ودمع وبقايا طلول. ومن حق سيدتي عليَّ شاسع العذر، ما دام الكلم يضيق ليلمَّ شمائل الصمت في حفيف مشيتها، ونحن إثرها، أهُنا تتبع أذيالها، والسماء فوقنا لا أدري أم تحتها، تغدو سُحبها يزاحم نجمها، تهمي ثانيًا وثالثًا بالأزرق يفرش صوتها ويكسو خطوها، ثم تروح ومن خدها قطفت وردها. بالأمس كان جسمي قليلًا واليوم صار أقل، فلما قلتُ أبادرها بما ملكت يدي وجدته الأقل، فعاد لساني يشافه عسى ينوب عن زادي. لن أسامت جمالها، ولن أملك عمره. هي لا أعرفها، الحق إني أخشى على الأسماء من رهبتها، فأكمُن في بؤرةٍ من خفاء لا تؤدي إلا إلى هلاكي، فكيف السبيل إلى مهجتها وأنا الذي ما أملك من العمر قدامي غير الحنين إلى مقدمها.

أما هو فالفخامة عينها. أيها الرجل المهيب انتظرت تِسعين حولًا كي تحب. كيف تأتَّى لك أن تعيش حتى التسعين قبل أن تحب؟! هذا هو البطل المذهل في الرواية الأخيرة لغابريال غارسيا ماركيز «مومساتي الحزينات»، وسيسمِّي المحبوبة كأنها طفلة أنجبها، وما هو إلا يريد أن يختص بها، أن يؤلهها كي يتوثَّن في عشق لم يولد بعد ليستبقيَه إلى الأبد.

عندما قرأتك استعدت الأمل، بل اليقين بأن الأدب أجمل ما نملك في هذا العالم، وكي نجعل الحياة تُستحق وتغدو دومًا ممكنة. لا يكبر العالم بالثروات إلا عند الرجال الجوف، ولا يتسع بالغزوات إلا عند الهمجيين الجدد، ولكن بكاتب كبير يهبط إلى المياه العميقة في السريرة الدفينة، يحتسي ويحتسي ليسقي غبَّها كل الظامئين، ويغور بهم في السر أبدًا بين الشك واليقين، آخذًا بأيدينا، آه كم تُهنا في المسير، وما عاد لنا غير انتظار جنة الصابرين.

أرى البلاد تشعشع بالمهرجان. أرى الجياع، الحفاة، العراة في كل مكان، أسمعُني غرابًا ينعب في الأركان. أتساءل هل قدرُ الكاتب في وطني أن يُمضي العمر في تدبير الأحزان. في الأسواق الناس يمشون ويأكلون، ويشربون الشاي وسط الذباب ولا يأبهون، وفي الليل ينامون، لا يفكرون إلا كيف غدًا بقليل من السكر وقبطة النعناع لا بد يعودون. لا يبالون بالفقر، كأنهم لا يبالون، فهو منبتهم ومأواهم، منه جاءوا وأولادهم إليه يرجعون، وفي كل ليلة قدر ينتظرون البشري فهم دائمًا الصابرون، حتى والفقر معشش عندهم إلى يوم يبعثون. هؤلاء عامة الأرض، «الديدان التي تنحني»، الناس

الطيبون يمضون زرافات ووحدانًا إلى المهرجان. تسبقهم آذانهم وفي أي باحة تتلوى أجسادهم والقلوب ملتاعة ساعة وأخرى منكفئة. لا بد من الفرجة وإن طال الحنين، ولذلك في شالَّة حتى الموتى رأيتهم يرقصون!

أما أنا فاستغربت للذين استغربوا لما وما جرى لمراكش في ليلة واحدة؛ مراكش — تلك — التي أصبحت محجًّا للأثرياء، وبيوتها وأراضيها في يد الأغراب وحدهم والغرباء، وكثير من أبنائها، بعد أن نكَّتوا طويلًا — كالعهد بهم — عادوا يبحلقون ولا يفهمون. مراكش التي في ليلة واحدة اقتصَّت لنفسها، هي وأحوازها، من بعض حرمان، في سبيل فرجة مبذولة بالمجان. كثيرًا ما تساءلت ماذا كان سيحدث لمراكش لو لم يكن فن «القشبة» مرهمًا لفقرها، وفضاء جامع لفنَا فناءً لانشراح روحها. لستُ ساذجًا لأقتنع بخلاصٍ مؤقت لليلة واحدة، ولكني أعفُّ عن حشر أنفي في الفتوى بما يحتاج إليه الناس أو لا يحتاجون. نلغط بخطاب الديمقراطية وحقوق الإنسان صباح مساء، وترانا ننقلب في رمشة عين إلى وُصاة ومتسلطين نُفتي في الحلال والحرام. سيصبح ربما لكل ذي جاه في هذا البلد مهرجان، غَيرة على مدينته، أو جهته، أو عصبيته، أو نعرته، أو ما شئتم غيره؛ ليكن. أوَلم يعِش المغاربة عقودًا وحكَّامٌ وأحزاب مزورة ومتسلطون يقدِّمون لهم ويستخدمونهم أدوات في أشكال من الفرجة المدمرة، واليوم يسمعون بعد أن أثخنتهم الجراح، بأن هناك من يريد الترويح عنهم وزرع الفرح في أنفسهم، ومقاومة الجهالة بثقافة المهرجان. ليكن، أوَليس جزءًا من المال العام نأخذ منه حقنا؟! كل هذا الكلام يتهافت منطقه أمام سيدة طيبة مثل أمي أمس، جالسة في حضرة جوقة من العازفين بأسارير مبتسمة، لو سألتها كيف أنت، ولم جئت إلى شالَّة لردَّت للتو بتنهيدة: «جيت انفوِّج على قلبي يا وليدي ... وهذا ما كان!».

هل تعلم أن فاس يسكنها الجان؟!

ألححتُ كثيرًا على سمر لتحضر إلى باريس. ربما أكثر مما ينبغي. قلت لها إن أعياد الفصح مواتية جدًّا لتلتقي بنت بأبيها، هنا. لم أكن أعني المناسبة الدينية فهي لغيرنا، ولكن السكينة التي نلتمسها في كل ما هو قالت إنها مستريحة في بيروت؛ حيث تشمُّ الشمس في ذراعها كل صباح، أما باريس فهي غريمتها؛ إذ يكفي أنها أخذتني منها. أقنعتها أخيرًا، ووجدتني عند وصولها أحار أين أقودها، وهي التي لم تحمل سوى جسدها. كانت مثلي تريد أن تجفو كل الأماكن التي تركت فيها جزءًا من ذاكرة ومشاعر لم أعرف كيف أحافظ عليها، فكأنني أهملتها معها؛ حيث تركتها في شرق المتوسط مكرهًا، فيا لخسارتنا معًا!

ربما بوَهم أن أستعيدها إلى البراءة المفتقدة، لم أجد غير وطن بعيد عن عينيها، قريب دائمًا إلى قلبي، مساحة محتملة للمصالحة، ومن حسن الحظ، ظننت أن الوطن — أعني المغرب — أضحى خلال أيام قريب المنال، وفي قلب العاصمة الفرنسية. عرفت أني سأجازف مع هذه الصبية؛ إذ كيف أدعوها إلى تغيير شراع عاطفتها بريح لا تواتي من كبر في كنف أحضان وثقافة أخرى. هكذا جميع المهاجرين واهمون، بل متسلطون إذ يفترضون أن أبناءهم يمكن أن يُساقوا بكلمتين إلى «لبلاد»، وفيها سيرضعون من جديد ما أخذوه هم من سالف الدهر، كأن الزمن لم يمضِ خطوة واحدة في أي اتجاه. وأكثر منهم تسلطًا الذين يُرحِّلون إلى الخارج بضاعة عنا يعتبرونها صالحة لكل مكان وزمان، ولو كره الكارهون، على الآخرين أن يبتهجوا بحسنها، وما همَّ أنهم لا يتهجون حروفها، وإليكم البيان:

فإني قلت لابنتي إن بلادك الأصلية على مرمى حجر، وبما أنكِ سلَوتِها وعشقتِ المها الأُخر؛ فستحيين الرحم بيسر ولا تغرُّب. فقد اتُّفق أن مؤسسات وطنية على رأسها

وزارة السياحة أرادت، بإخلاص وحسن نية طبعًا، وبمناسبة مرور خمسين سنة على استقلالنا المجيد، ونظرًا — أيضًا — لرهان بلادنا الخطير على مغرب سياحي ليكون الثروة النفطية التي نعدمها؛ أرادت مزيد تعريف بنا، وإشهار لثقافتنا وتراثنا، ومعالمنا الحضارية والطبيعية وما شئت مما لا شك سيجلب الملايير (كذا)، فقصدَت الاتجاه الصحيح عندها — أي باريس — وفي أفخم ضاحية قريبة، (نويي سورسين) حيث اقتدتُ ابنتي بقلب خافق إلى المعرض الموعود الذي عولتُ عليه سيبهر العجم قبل العرب، فضلًا عن أنه سيصالحنا عاطفيًّا، يا إلهي! ببلدة نويي الوديعة، في حيها الشرقي الغابوي، حيث يمتد المنتزه المعروف باسم Jardin d'acclimatation يقصده الأطفال خاصة لما فيه من ألاعيب ومشاهد مغرية، وبمراياه ذات الانعكاسات المضخَّمة. هنا بالضبط اختار المغرب الرسمي وتوابعه أن ينيخ ويحط الرحال — بمعنى الكلمة — لبضعة أيام؛ هكذا دُقت الأوتاد، ونُصبت الخيام، متفرقة بين جنبات الحديقة لا تخطئها العين، ولكل خيمة منظر ومخبر، ولها مجتمعة، لو ضم شتاتها حديث، والله، ذو شجون!

اعلم أيها المغربي العزيز، ملتصقًا بتربتك أم مهجرًا منها، أن وطنك به خيمة تحتوي على صنوف أعشاب، للتداوي أقرب، ولا بد من السواك والحرقوس والكحل والمورد والمسكة، والعكار الفاسي، تيمنًا ببهاء نسوتنا. يا للهول، كدت أنسى أطباق الحناء، وإلا من أين يأتي غروب واحاتنا بخضابه الشفقي، بل يمكنك اختصار المغرب في كفٍّ امَّحى منها خضاب دم الشهداء — لأمس — وتراها بنت حاضرها يا سيدي، نحن أبناء اليوم، تراها تتثنى بغنج الخصور التي تلبس تلك القفاطين. هذه هي المرأة المغربية، سأضيف إليها قرطًا وخلخالًا ووشمًا، ورأسًا مغطًى بترازة، وأخريات معروضات في سوق إمليشيل، فنبيع لها أجمل صورة في الغرب.

طبعًا لم أعلق بشيء، وإنما تركت ابنتي ترى على هواها، وأسمعها تعلق بصمت: «عالم آخر!» في الخيمة الثانية صور سياحية — وإلا ماذا سأسميها — عن البحر وعن الشاطئ، ألسنا تجارًا للشمس؟! وللأقواس والأبواب في المدن العتيقة، والتربة الحمراء أو الصفراء في ورزازات؛ أرض السينما لا الإنسان أو أبناءها المذقعين، العاشقين للمطر لا العدسات. كنا نمسح هذه الصور مع عابرين كالتائهين، بلا حماس ولا دليل للزائرين كأن حب المغرب وحيٌ ينزل من السماء. في الخيمة الثالثة خرَّاط تقليدي، حاضر بجسده غائب في الزمن الغابر، مثل أوانٍ تقليدية، يتساءل مهاجر زائر، هل يمكن تأجيره لتأثيث مناسبةٍ ما، فقلت له هذه هي المناسبة بالضبط، ومضى لا يفهم مع أولاده خاطرهم في

شيء آخر تمامًا. في الخيمة الرابعة، كما لا بد ستحزرون، صوانٍ وأطباق ومشهيات، فنحن من العرب المستعربة، والآكلة خاصة؛ مطبخ وطباخ وعارض حلوى، وبلادنا يمكن أن يختصرها شعار واحد: «المغرب طجين!» اللهم أن يغار كناوة وهداوة، وأخاف من الأرواح الأخرى التي سنصل إليها في حينه، بل إننا وصلنا، وها هي بالباب.

كنا، وقد أُتخمنا بهذا المخيم المعطاء، ورفقًا بابنتي قلت آخذها إلى حيث أعيدها لعمرها الغض، لكن ها هي تجذبني نحو خيمة قصية، هناك سرتُ بخطوة متكاسلة إلى أن وقفنا على مدخلها. رأينا امرأة جالسة، مفترشة الأرض حولها بضع صبية، وأخاف أكذب لو قلت هل هي مغربية أو نصرانية أو الله أعلم. وحدنا واقفان، وصلنا والمرأة تلوك في فمها كلامًا، حين أنصتنا هنيهة فهمنا أنها تحكي للأطفال حكاية. كنا كمن يدخل إلى قاعة سينما ويلتقط الفيلم بعد بدايته؛ لكن لملمنا الخيوط بسرعة. كانت المرأة تحكي عن فاس التي أعرف، وتجهل حتمًا، ومني منك، عندي عندك، بلغَت حكايتها الذروة، غير أنها بدل أن تسحر مثل الجن الذين كانت تروي سيرتهم، بسم الله الرحمن الرحيم، قطبَت جبينها، وأظن الحلقة اتسعت حينئذٍ بمرور أطفال فرنسيين يزورون المرايا الشهيرة للحديقة، لا الخيام، ثم ضربَت كفًّا بكفٍّ زيادة في تنبيه المجلس أو ربما إحضار الأرواح لتقول هكذا بالفرنسية الفصيحة: الحكاية انتهت، لكن فاس يسكنها الجن فعلًا، وهم يتعقبون الأطفال بالليل والنهار، ويخرجون للكبار، أيضًا، في الأماكن الموحشة، وحتى … ولذلك يدخل السكان هناك إلى بيوتهم باكرًا جدًّا، ورأيت عينيها تجحظان بعد ذلك مع شفتيها تزبدان، والأطفال يفرنقعون، وأنا أجرُّ وحيدتي إلى أبعد نقطة ممكنة مخافة أن تخرج حية رقطاء لترقص على إيقاع بندير، ليكتمل المشهد. وكأن ابنتي خمنت شعوري فبادرتني: هكذا أنت دائمًا يا أبي، بتقلق عالفاضي! هوِّن عليك، باريس ذات الشيء، فيها الجن أيضًا … وبعد لأيٍ أعادت لي طمأنينتي: والملائكة كمان، على قول عمو طه حسين، الله يرحمه!

توابل مراكش الفناء

كنا ندخلها من باب القلب
فولجناها من شقِّ الغلب،
بتنا فيها مغلوبين،
لا غالب، إلا الله.

انفصل طريقانا، ثم عادا اتصلا تحت أهداب الجكراندا، تلك الشجرة المترعة — كما تعلمين — بهول البنفسج، خضَّب لونها نعاس عينيك في عز الظهيرة فاشتعلت مراكش بالولع وازَّينت يومها لقالق قصر البديع بإناث النظر، يرقصن رقصة الغجر، والخيل تعلك شدوها، لا تحط رحلها حتى رعشة السحر.

عمر من الزهو والغضب المستعر، ذاك العشق طافح في أحداقنا حدَّ الجمام، أتيناكِ فيه يا مراكش. يومها كانت قرية مجَّاط على مرمًى من شاعرها المكنَّى بها، مرتديًا — كما ينبغي له — المجدل والشد والكُمِّية. كان على موعد مع غدها؛ لذا مر أحمد المجاطي «وفي عينيه خُف حنين، وكنا اثنين ...» وبتنا الليل تلو لليل، نعلك الحلم تلو الحلم، نراود الأشجان في الساحة، أنعِم بها، وقتها، من ساحة.

في عمر آخر جئت إليك محفوفًا بالنهرَين، بالرافدَين. كانت سماء بغداد عامها مدلهمًّا بقصف الرعاة الأمريكان، لم يبقوا من هواء الله فوق الأرض غير القار، محتبسًا في حنجرة الطير، وغطى عيون الشعراء فانتفض السبعة رجال — أولياء مراكش السبعة — فرشوا الواحة بالمسك، وجبروا عظم وخاطر التفعيلة المكسور. من الشعراء ثلاثة — حميد سعيد، سامي مهدي، وعبد الرفيع جواهري — ما زالوا شهودًا على ما أقول.

أمس قصدتك لأحفر في الصهريج بئرًا آخر من مائك؛ ليكرع منه، له وحده، حفيد صحرائك محمد باهي العطوش إلى أيام سالفات منك، السَّري في أبهاء لياليك. أميرٌ فاتته الإمارة في الفلاة؛ فتوجناه ثامن الرجال في واحة ابن تاشفين قصاصًا من زمن الطغاة.

جئت إليك من باريس، صارت وقتًا صحراء في أحشائي.
العشب فيها كأنه شوك، والغمام ظلام.
من عنق شمالي إلى حشيش صوتك،
أمسك بالوقت، بالضوء الصاعق منك،
على شرفات الجبال تلألأت الصبايا،
القزحيات مستحمَّات ببياض اليمام.
التي شردتني في الأقاصي،
ويحها، عادت بدَّدتني،
في المسافة بين نخلتها ونخوتها.
عذرًا، هذا بوح الأماسي،
أو سمِّه توقًا إلى ذُراك حين تبوح.

صهٍ، هذه مراكش استفاقت! أو رأيت الحرقوص لوَّن خديها، والعربيات، نعم العروبيات، كالشليحات الزوينات، يرفلن فوق شفتيها، يغسلن رضاب الصباح، والخضاب في رسغها خطَّ سوارًا واعتلى سور الشمس، صار لها جناحًا.

سألتك من أين لونك؟ ما حطب النار؟ كيف تسري النار في الرياضات والجنان ليلًا نهارًا، تذوب كل الخلائق فيك من عهدٍ عاد، صوت الله وعد من الكتبية وحتى نهايات البلاد وعيد. وأنت هنا تحت عين الشمس واقفة وسامرة وجامحة. أشرت خلسة إلى الغسق يلاعب طيفك من الرأس إلى الأخمص، بينما «الكوتشي» يطوف بك على إيقاع الخبب.

أما الغُلب فليس أن تتبدل عليك البلاد، يشحب معها لون الوجه والجدار، ذاك أصل في الطبيعة؛ الغُلب أن تغترب في أرضٍ لك وتُنتزع منك عنوة بالنظر والفعل لتصوغها، أي تشوِّهها أيدٍ، إرادات سواها، لا هي من تاريخك، وتجفو هواك.

ومراكش الواحة، مثل كل مدينة جذورها ممتدة في عروقنا ونسغها في السويداء، بادية أمامي كأنها ذاهبة في اليباب فيما يحسب أهل النبش والهبش أنها في مطية

السحاب. الخلق فيها منتشر؛ لكنه منحشر كأنه ذاهب إلى يومه، على عجل. كانت مراكش مذ عرفنا فتيتها السُّمر الأماجد، والمرح المتراقص فيهم بين العين والحركة، دعكَ من غازلات الشهد خلف كحل الشبابيك، كانت يا سيدي مولاي مرادفًا للبهجة، وهي الحسن، وفي (الصحاح) بَهَجَ به فرِح وسُرَّ، والابتهاج السرور، وعندي أنها ذلك وأكثر.

هذا كله، قبل أن تظهر سلالة الهبَّاشين، هؤلاء الذين يرفعون حاليًّا شعارًا صفيقًا دون أن تطرف لهم عين، عنوانه: «كيف نبيع المغرب أحسن» ستقول لي يا سيدي مولاي، ماذا سنفعل بهذا النخيل والأسوار والأنوار، والتين والزيتون، وبالأصائل، وفرق كناو وهداوة، وأولاد سيدي احماد وموسى. فضلًا عن فتات القصور والجنانات، وكراكيب لا تعني المغاربة جميعًا، يمكن أن نعيد فيها البيع وهي الإنسان — أولها — والخيل والبغال، باختصار ما هب ودب.

ورأى في بلاد مراكش عجبًا

ولما كان قد أعياه الترحال قال لا بد أحط الرحال، عساني وراحلتي — يقصد جسده المنهك — نُصيب في هجير العمر بُلغة راحة. ولم يكن له في الأرض على ما وسعت، والقارات التي فيها مشى مشي الفاتحين، غير بلد واحد إليه يفيء ساعة الوحشة في الحلم، يرى نفسه يرتع في ملاعب الصبا تتجاذبه الروائح والأصوات، يطفو فوق الأرض والسماء إهاب، الأذرع إليه تمتد والأعطاف مفتوحة متهادية كريح رخاء.

أحيانًا، وهو في تيه عمر أخذه إلى بعيد كجد عتيق له، اسمه عوليس، كان يلتفت إلى هناك متسائلًا في شبه حنين أو عساه يهتدي إليها من جديد، ضيَّعها أو ضيَّعته — يقول سيان الآن! — فلا يرى أحدًا ولا شيئًا. يكاد يطلق من حنجرته صرخة محبوسة من سنين، يكاد يستوقف العابرين المتعجلين إلى زوالهم، يا هؤلاء قفوا هنيهة واصرخوا معي، فأنا — والله — حفيدُه، ولا قِبل لي بعيش يحفر بيننا كل هذا البعد، تعالوا ننخرط في نداء مشترك فهي لا بد تستجيب إن سمعتني فيقفون مبهوتين من غير طلب، مندهشين ممن ضاع — مثلي — حد العمى عن نفسه بما حوله مغمضًا عينيه عما في داخله، وأشاروا بأصابعهم فيما بينهم، ثم عادوا فأشاروا إليَّ وعندها فهمت أني بلغت من الهوى حدًّا طفح، ولم يَعُد لي اصطبار على البعاد فصرخت أين أنت يا إرم، يا إرم ذات العماد، لكن الصوت توقَّف مثل هواء راكد أو ماء آسن لم يتصادَّ ولا أحدث الرجع المبتغى؛ الصوت هوى وغار في جوفي إلى قاع متختر ليصَّاعد حممًا فاحتقن وجهي، ومن شفتي طفح اللهب، لأسمعني أقول إنها فيك يا أعمى، إن «إيتاكا» تسكنك دائمًا، وهي لم تغادرك يومًا؛ فاسكن إليها عساك واجد بعض الراحة.

عاد يقول على طريقة المسوسين التي أصبح عليها: لا، ليست البلاد هي المشكلة، ولكن خلقًا هلك، وآخر غاب، وثالث لا أجده، ورابع تاه، وخامس تعبت من البحث عنه،

وسادس كلما سمعت فيروز تغني طفر الدمع إلى عيني، وسابع أحسبه يفتك بي كلما دنوت منه، فأين أُولِّي وجهي بعد طول غياب يا بلاد؟! إليَّ، إليَّ، فإن فراشك ما زال، ومخدتك، والحروف التي كنت تتهجى مكسورة لملمتها في الطريق بين الدار والمسيد، وضحكات مرحة، أيضًا، كتقشير اللوز، جمعتها لك في حُق كما تجمع أصوات العفاريت، وعندما ستسمعها من جديد ستغمرك الطفولة ببياضها وأريجها، ولا أعجب إن طرتَ بأجنحة النوارس إلى البحر الذي أحببتَ دائمًا، ومن علو سواحلي أطللتَ عليَّ وعدتَ تخوض في رحلة عدِّ أشرعة المراكب المبحرة إليَّ، مرِحًا تطير تهفو لنبعي من خلال عطش أعرف أنه لا يرتوي عندك؛ فهل ظمئت اليوم لتقول إنه لا بد من بلاد مراكش وإن طال السفر؟!

وكان أقوى ما استوحشه أن يرى الناس مطلقًا، وأن يسمع الكلام على أي صورة جاء؛ ذاك اللغو الفطري الكاشف توًّا للطبيعة لا غير. قال له أصحاب إذا أردت أن تعود؛ فادخل من باب مراكش لا من أي مدينة أخرى، ولم يقدر نصحهم حق قدره إلا وهو يغادر من مدينة غيرها. فإنه دخل كالنسيم ابتسامات تفرش له الطريق، ودفعة واحدة أراد أن يحضن الهواء الساخن ويطيب به وجهه ويديه كالمتوضئ، لكنه بعد طول وقوف لم يجد سيارة أجرة تنقله إلى المدينة، فالسُّواق جميعًا أشاحوا بوجوههم إلى وجوه بيضاء ناصعة، وتركوه في بهيم الليل ينظر متعجبًا إلى بلده. وقد ظن الأمر مزحة؛ لكنه في اليوم التالي ألفى نفسه وآخرين ملفوظين كالنواة، والسيارات تتكالب على اللحم الأبيض وحده. لم يكن له اختيار في اللون الأسمر الذي يدبغ جلده، ولو خُيِّر لما ابتغى عنه بديلًا، وعزا الخلل إلى أن بعض السُّواق يحبون قهوتهم مخلوطة بالحليب، فيما لا يشرب هو إلا الصِّرف. ولما أخذ يتنقل في الدروب ويمشي في الأسواق، ويحاول أن يختلط قدر ما يستطيع وجد أن الكلام يحتبس في جوفه أكثر مما يخرج، ولم يعلم أن به عِيًّا في يوم من الأيام، رغم أنه تذكر أن الأيام دوَل، وهذا يوم عليه.

أجل، وإلا كيف به يسمع خليطًا من أصوات لعلها تشبه جميع اللغات ولا تشبه أي واحدة منها. في واحدة من كبريات مدن هذه البلاد نظر إليه تاجر مبهوتًا وهو يسمعه ينطق بالعربية التي تعلمها في بيئته الأولى واضحة مفهومة كما ظن، تواصل بها الأهل والأصحاب والتلاميذ، وغذَّوها بما تعلموا في المدارس؛ فتهذبت ورشقت ورقَّت عليلة. بوجه مكشر رطن بكلمات فرنسية كأسنان مخلخلة، وكذلك فعلَت بائعته الرقطاء. راح إثرها يذرع الشوارع يرفع عينيه إلى مداخل العمارات، ولافتات المتاجر، ولوائح الإعلان

التجاري، ومثله؛ فظن أنه في كابوس، وأنه أخطأ في البلد المقصود عند ركوب الطائرة، أو أن القوم رُحِّلوا من ديارهم، جيء بغيرهم ليستبدلوا لغتهم على نحوٍ ما رأى، وسواه من الظنون. إنما لا شيء من ذلك، فسرعان ما استعاد صحوه، أي يقينه بأنه هو هنا — فعلًا — في البلد الذي كتب عنه عبد الواحد المراكشي كتابه الأثير: «المعجب في تاريخ المغرب» لزمن الدولة الموحدية وحدها، وقدر أن الشعوب تذهب إلى الأمام؛ لكن اختلط عليه أغلب ما رأى لا يريد أن يسميه، أو سيجد نفسه يجلد تاريخه وناسه، وسيُعييه الفهم ولن يفهم.

بلى، ستفهم، قال له إن توقفت عن الفضول، وعُدتَ تنظر إلى ما حولك على الفطرة التي خلقت بها، أي قبل أن «تتلوث» بتلك المدنيَّة الغربية، وتكفَّ عن تعلقك بالأزمنة الغابرة أيام كانت أمتك لها أزهى الحضارات، وتنسى أن الأرض تزرع فيها الأشجار والنخيل، وتعلم علم اليقين أن ساكنتها بيض ونحن فيها سود، وسادة وعبيد ونحن العبيد، ومتقدمون ومتخلفون، ونحن على ما ترى، وأن تجتث لسانك العربي من أصله ففي السوق ما هو أرخص وأروج قابل للترويج؛ باختصار، لم لا تفعل مثلي، مثل كثير: قل «كل أخاك!» بدل «أعِن أخاك» وابصق حيثما شئتَ أو ستموت من كمد، أو عُد من حيث أتيت!

أيها المصطفى ترجَّل

أُعلِنت ووُزعَت الجوائز المخصصة للإعلام المغربي في قطاعاته المختلفة لسنة ٢٠٠٥م، ومن بينها، بل وفي قلبها الجائزة التكريمية التي مُنحت للصحفي والمناضل المغربي الكبير، مصطفى القرشاوي الذي اصطفاه الله إلى جواره قبل بضعة أشهر. لم ينَل الراحل العزيز شيئًا من دنياه، وقضى جل عمره متقلبًا بين الاعتقال، والنفي، وملاحقات الأمن السري، وبين زمن طويل من المكابدة في العمل السياسي الملتزم مع القوات الشعبية، ومن أجل رسالة التقدم والتحرر. لكن مصطفى القرشاوي كان قبل هذا وذاك مثقفًا تقدميًّا متشبعًا حتى النخاع بالفكر الاشتراكي، وبروح العروبة ومبادئ القومية العربية، ومتطلعًا دائمًا لأفق التجديد، منخرطًا بعناد وحماس عزَّ نظيرهما في النضال الذي خاضه الجيل الاتحادي الستيني، وصعدًا لوضع المغرب على خط امتلاك حقوقه الديمقراطية ومناهضة كل أشكال الحيف والظلم. ولقد كانت الصحافة عند أخينا مصطفى هي المجال الأرحب، بعد المحافل الحزبية، للتعبير عن هذه المبادئ ورسم التطلعات، برز فيها بشكل خصوصي منظورًا وتفكيرًا وأسلوبًا، وأقوى مثال يمكن أن نسوقه هنا هو نجاحه في التشكيل الفعلي لجريدة «المحرر» إلى جانب الشهيد عمر بن جلون، وقدرته على استقطاب وتكوين مواهب وقدرات صحفية عرف كيف يعيد عجنها، ويشحنها بطاقة زمانه وروح الوقت المغربي المتوقِّد، ومنه تعلمت أن الإعلام رسالة والتزام دائمان للوطن والإنسان، وإخلاص للذات تعبر بوفاء، وليس تجارة ولا تسويقًا للمناسبات. في سنوات عمره الأخيرة، وقد أخذ المرض وضجر العمر ينال منه، كان معلمي وصديقي مصطفى يرى الأيام تتبدل، والسحنات تشحب، والشعارات تتهافت، والصغار يُمسخون كبارًا، والكبار ينزوون في الصفوف الخلفية علمًا بأن الصدارة هي دائمًا حيث يجلسون. ولقد عاش وظلَّ هو مكابرًا، عرفته عفيفًا؛ فشاهد ومعه شاهدنا وما زلنا، ورغم الداء والأعداء

سنظل نعلن الشهادة بإباء، ولن نساوم، لا في الماضي فكيف بالحاضر. وأسفله شهادة من القلب كتبتها بغواية من صديقي الصحفي والأديب الوطني عبد الجبار السحيمي، رئيس لجنة تحكيم جائزة هذا العام، وهو يُسر لي نبأ التكريم «المتأخر» للراحل مصطفى بجائزة الإعلام لهذا العام، فإلى روحه، وشكرًا ومحبة لعبده، دائمًا.

لم يكُ جسدك قد انفلت من بين قضبانهم إلا هنيهة من عمر هارب منك سلفًا، يقودك رأسًا إلى حيث الكلمات ستصبح لك المهاد بك البلاد. من غير وشي والجرح بعد ينزُّ، زُفَّت إليك الأرض وهي تَئز. خطواتك دائمًا سارت أمامك، وآثار ظلك المتقدم إلينا اقتفت أثرك؛ ولذا توهَّموا أن يلموا جسدك في قبضة كف، لذا أستطيع أن أستدعيك الآن فتأتي خفيفًا، حول مجلسنا تطوف رفيفًا، تُبادل قُبلتنا والهتاف بألف.

سأعود أراك من حيث أنت ملء مداك. قادمًا من أفقٍ مدلهم، ذاهبًا إلى رعشة منك، هي فداك؛ رحتَ تمضي نحو تلك الضفاف ... التي بينَ عباب أمس، وشغاف همس، حملت قامتك الفارعة، تشق طريقًا أنت تسبقها، وحشودًا لزحف، هامتك مطلعها، خصالك أم الصهيل الذي به مراكش، حتى قباب السماء، يا صاح، ما زال، وحقك، وِردًا لها، وأنت موطنها.

ستُذكِّرني، وقد غمرتنا اليوم أمواج «الجندي روش»، تلك الزنقة العاتية، سلخت عمرنا، ما مضى، وما لم يتبقَّ من الأحلام أم الأوهام، هي الغانية؛ ستذكرني بأن الكلمات، شأن الدواة، إذا لم نغمسها، من الشوق حتى حبل الشنق، في معترك الدهر القهر ندفعها مهرًا لأرواحنا، غدًا عند تلك الملمات، ليست سوى سقطة، أم تراها ستغدو، كما غدونا، نثارًا من الذكريات.

مرحى! المجلس لك كله. المجلس نحن، أنت غمره. سأختزل الصورة على سبيل الشهادة، فما عاد أحد يحتمل ذاك الاستشهاد اللايُسمَّى؛ فإن تسمَّى سمَّاك أنت وحدك، صُلت فيه كما جُلنا إثرك، أوَلستُ ذاك المريد الذي من كل زمان مشى، بين الشفع وبين الوتر، يردد وِردك، الذي يطرز بردك معلنًا كالنبوءة في دراويش البلاد التي هي الآن وشيك ... إني والله أعرفه، إنه حبيبنا المصطفى «المحرر»!

بابًا، بابًا طرقت. أنت الذي بلا بيت، سوى قضبان، أو ما افترشته «أمينة» من حسرات. جمعتنا، بل جمَّعتنا من شتات حول موقد تلك النار، بلا برد، بلا سلام، بل باللهب المستعر، عساه وطن من جمرها يكتوي، فتشكَّلنا هيئة للتحرير لأنَّا كنا المحرر،

لا لجريدة حسب، بل وطن، حين كان ثمة معنى للوطن؛ نعيد الغضارة للفنن، والشذى للسوسن، والشدو لتلك الكلمات المزهقات، وكل ما يعبث به الآن بعض صبية الحي من كلمات، أو قبل أن يصبح العمر هباءً منثورًا حدَّ الترهات!

كلا، لذا فهذا الحشد، ويحه ما أنكرك، إنما لا بأس اليوم إذ يستدركك. لا ما فاتك، فأنت هو الوعد باقٍ، إنما أقل ما يمكن من الغضب المباح، من اللهفة الآسرة أم لعلها الخاسرة ... يا رفيفًا لنا، نعم قد قضى قبلنا، ثم ... انظروا، من يُكذبني، مرحى ترجَّل، كما عهدتك دومًا فارسًا، إنها ساعتك، لا مجد إلا ساعتك ... معذرة أيتها السماوات؛ إذ نأتيك الآن ونسترد، حتى عنوة أو خلسة من شماتة الدهر، واحدًا من طوارق الفلوات ... هيهات، أنَّى لنا أن نسترجع تلك الصَّولات، أم تراه العمر يمضي مضضًا أم بددًا، لم لا وأنت حر جالس في أحضاننا ... بين خذني وهات ...

أيها المصطفى تنزَّل، هذه آيتك.
أيها المصطفى ترجَّل، إنها ساعتك.

يوم جرحتني ... تلك الرباط

ما الرباط؟ مدينة؟ أرض؟ أهل؟ أصحاب؟ متاه؟ هلام؟ وقت فاتر من أذان العصر إلى المغرب؟ انزلاق غضروفي؟ صخب مدخن بالشبق السري من «باب البيبة» إلى «ديور الجامع»؟ انفلات اللمسات على جلد أملس؟ أم نمش ناضج قليلًا على بشرة بيضاء؟ أم الغياب الذي يتركه كاتبها العريق عبد الجبار السحيمي حين يدير لها ظهره، واهبًا نجواه إلى المحيط؟ أم الدوران اللامُجدي لعبد الكبير الخطيبي في «ثلاثية» مدينة لا تتثلث أو تتسدَّس إلا إذا كبرت في عين الرائي، وتقاذفت من جوفه الحمم؟

يكفي أن تقول الاسم لترتعد له الفرائص، و«تخرُّ له الجبابر ساجدينا»، ذاك حال عهد مضى، كل شيء مضى، وما نقوله الآن ونمضي فيه فتات تلفٍ، لعله زادٌ لما تبقى من الطريق. لكن الطريق إلى هذه المدينة التي اسمها الرباط — مرة — والسراط — مرة أخرى — ليس سالكًا دائمًا، وأنت فيه تتقلب على جنبي الهلع والولع. عليك لكي تراها أن تحلم بها؛ فإن حلمت لن تدركها، فيا ويلك! كلهم ذاهبون إلى الرباط وعائدون منها. في الذهاب رحلة إلى المجهول، والأمل والخوف خفق ورعشة حتى الأسنان. وفي العودة نصر وإما خيبة. لكن في الحالين ركون إلى السكينة. كل صاحب حاجة يقصدها، فإما تقضى الحاجات أو تصلى بنارها، ففيها الخصام، وهي «الخصم والحكم». ما أكثر الأسياد، الأنوف الشُّم أذلتهم، أو بمجدهم عصفت. وما أكثر الحفاة العراة، الأرضة صيرتهم مردة، ونفخت لهم الأوداج. فيها ذاقوا الشهد، وقبلها ما عرفوا سوى طعم الماء الأجاج.

وتبقى على الأغلب فزَّاعة نزَّاعة إلى الإذلال وإملاء فروض الطاعة؛ لذلك يميل ساكنتها على العموم، والوافدون إليها على الخصوص إلى الاستكانة طالبين السلامة ... أوَليست هي، بعد هذا وذاك، كناية عن المخزن، بل المخزن بالذات والصفات، الذي حارت

في فهمه ألباب وعن إدراكه عقول؟ وما أنا من هؤلاء، ولا من أولئك؛ فلم يكن لي عندها بدٌّ ولا وطرٌ أقضيه، لا ابتغيتُ من مخزنها شيئًا ذا بال على أي حال. فإني — يعلم الله — اقتفيت أثر والدي، جعلت قرة عينه في محراب القرويين بفاس، يوم كانت مسقية من صوب الغمام. وإذ تقلبتُ على جمر العمر بتٌّ لا أعلم هل هي سانحة أم بارحة ما ألقى في هذه الأرض التي تنظر إلي تارة شزرًا، وتارة خفرًا. وقد امتد بيننا حبل مكين من الأسوار والأسرار، والكلام الملغز كالأبد.

والآن، جاء دورك أيها الرباطي الأثير، من أسميه الباحث السرداني عبد الفتاح الحجمري، ديدنه أن يتمتع بوضع الأصدقاء والطلبة على السواء، يوقعهم في شرنقة أسئلتهم الحلزونية ويتركهم معقودي اللسان ثم يذهب ليجيب شي دويرة في حي ديور الجامع، هناك يناغي صباه قليلًا؛ فإذا عاد وجد أحمد المديني يرشف قهوته في مقهى «الكموفل» بحي أكدال، وهو على عادته على أهبة الإقلاع، فسارع يسأله: «أوَلا ترى أنه آن الأوان لتحط الرحال فتكتب روايتك القادمة عن هذه الرباط؟» ولا يدري هل هو استفهام أو إنكار غابت صيغته، أم ربما تعجب، أم كلها، وقد أحس أن العيش في هذه المدينة — وأي مدينة أخرى مثل — الورطة ليس منها فكاك؛ ربما صارت الرواية فكاكًا. وقتها أجاب من تلقاء نفسه: إنك لكي تكتب عن مدينة، لكي ترويها، خاصة، ينبغي أن تتحول في جسدك شريانًا مثل ذلك الماء الذي يهبط عميقًا بين تجاويف الصخور وأحشاء الجبال، ثم ينبغي تتركها خلفك كتلة مكتنزة جماع ما يكتنزه الزمن. أن تنساها تمامًا إلى تصبح حكاياها وصورها صحوك ومنامك حيثما حللت. ولعلك أردت أن تضيف سببًا آخر يجعل الواحد مربوطًا إلى الرواية أو الرباط سيان، لا يفطن إليه العجزة من ذوي النفوس القاحلة، شاخوا في بعثرة الحروف بلا طائل، ظانين الرواية تقليعة أو عهنًا منفوشًا، أو ربما اجترارًا لخيبات وأعمار يائسة. هيهات، لعلك أردت أن تضيف سبب المحبة والسرور، ثم الحزن والشجن، وفراق يتلوه لقاء، يليهما القلب إذا رفرفت فيه ألوية الحب ... ثم لم تجد بدًّا من السكوت، مثل شهرزاد عن الكلام المباح.

ويا صاح، اعلم أني عشية يوم ٢٣ يونيو، من عامنا هذا ٢٠٠٤م، أدركت أن كل ما قلته تعليلًا لهروب الرباط عني رواية خرف وهرف، وافتراض من التفكير وترف. ففي لحظة واحدة وصاعقة كالقدر طارت «السكرة» والفكرة، معًا، لتحط محلهما الحقيقة شاخصة ومشخصة باللحم والعظم والحديد، لا بالكناية والاستعارة ... أو وارف النظر. عندها أيقنت أن الرواية، أن الرباط، لا يمكن أن تُكتب من هلام — لذلك لم تُسرد مدينتك بعد، أو عبثًا — وأن لا بدَّ لها من أن تتحول إلى عظم، مدينة بحجم عظم، يا للهول

والمفارقة؛ فيمر كاتب «كلب» مثلي، ويعضُّ على العظم، مُعملًا فيه فكَّيه كليهما، ومنذئذٍ وأحياء ديور الجامع، والملاح، وسيدي فاتح، والأوداية، وبوقرون، والعكاري، والقبيبات، وباب الأحد، وباب تامسنة، وحتى باب المكِّي الزكي، كلها تنهمر سردًا وحكايات، أولها ما ينطق به — عن الهوى — هذا اللسان:

اتفق لي يا صاح أني نزلت، في التاريخ المذكور، إلى جنوبي شارع محمد الخامس قاصدًا فيه وكالة مركزية لاتصالات المغرب، خرجت منها صفر اليدين لم أقضِ حاجتي كما هو المتوقع. وبينا أنا واقف في بابها خارجًا أبلع حسرتي هالني ما رأيت دفعة واحدة كالعباب: جنوب الساحة الممتدة بين «انفصالات المغرب» وبنك المغرب في مواجهتها، والبريد المركزي، على اليسار سور من السيارات تسمى قوات التدخل السريع مدججة حتى الأظافر من الداخل والخارج. قوات تحت الأقواس، لصق الجدران، وفي كل المحيط شباب وفتيان، وأكبر منهم عمالقة وصناديد. يرتدون جديد الهندام مكويًّا، عروق سواعدهم نافرة، وأحداق عيونهم حارقة، وأيديهم على الهراوات المفتولة قابضة، عروقها متأهبة لا تنتظر إلا إشارة الانقضاض.

وسط الساحة وقع بصري على شخص خلتُ أني أعرفه، بيد التولكي وولكي، وبالأخرى أصابعه تلعب مثل مايسترو ستعزف أوركستراه سمفونية الفناء؛ صدره عالٍ، ورأسه إلى السماء. انتقلتُ إلى الركن الآخر جهة مركز البريد الرئيس، أحس أعضائي ابتردت في لهب الحر، تاركًا بصقة أمام وكالة الاتصالات، وأنا أنظر إلى شرطة بلادي يقوم بيننا حاجز من حديد وزجاج، ورجل الساحة يدخل ويخرج من رأسي، أراه في صورة ماضيه أيام كان يشيد بالصراع الطبقي ويحث على مواجهة المستبدين والجلادين، والآن في صورة حاضره يعطي إشارة المايسترو، يتقدم الشباب «الأشاوس» الذين أنقذهم الجلاد من براثن البطالة بهندامهم الأمني الجديد وعضلاتهم المفتولة، يندفعون كجائحة نحو القسم الجنوبي من شارع محمد الخامس، أي بعيدًا عن ذلك البرلمان، والساحة التي يبرقشونها ويحصنونها لحمايته وبرلمانييه ومستشاريه. أرى قوات البلاد مثل جراد اجتاح العام الفائت، تحاصر شباب البلاد من خريجيه العاطلين والمشردين، الذين لم ينقذهم الجلاد من البطالة، لأنه — وببساطة — لكي يستتب الأمن لا بد لقوات الأمن من خريجين عاطلين ومنسيين يصرخون ويهتفون بحقهم في العيش فقط، لتنزل فيهم ضربًا ورفسًا وركلًا.

كانت الساعة يا صاح السادسة ودقائق مساءً من يوم ٢٣يونيو عامنا ٢٠٠٤م، أي لأمرٍ ما تذكرت يوم ٢٣ مارس من عام ١٩٦٥م حين وقعت الواقعة بمدينة الدار

البيضاء، الشهيدة. هذا فيما اختلط بأقصى الشارع الخامس الرباطي الهتاف بالصفير يحتج السكان من النوافذ، والعابرون من المارة تنهال على رءوسهم وسيقانهم الهراوات، واللكمات تسدد إلى وجوههم، لم تشفع لي محفظة باليد فتلقيت ضربة في ذراعي، وأخرى على ظهري، أفٍّ لها من بلاد يضرب فيها الأبناء الآباء!! حاولت أن ألوذ بمكتبة كليلة ودمنة؛ فهالني أن أرى عند مدخلها بيدبا مضرَّجا بدمه، وهو في حال من الهذيان سمعته يقول: لم أرَ مثل هذا في أرض الإنس، ولا مسكن الجان، أوَهذه، إذَن، هي بلاد حقوق الإنسان؟!

الكلمات: جثث ستُبعث يانعة!

«بمثابة شاهدة على قبر طفلة اسمها زينب، قتلتها إسرائيل في قرية قانا اللبنانية، مع ٣٧ طفلًا في حربها الهمجية على الأمة العربية، في ٣٠ يوليوز ٢٠٠٦م.»

وقفتُ عند عتبتها، نتبادل على غير العادة نظرات محنطة. وقفتُ وما في الفظاعة شك لواقف، لا أسمع، لا أشم، تعطلت الحواس، والنظر وحده إلى ما يشبه شاهدتها، هناك عمال يوشكون على الانتهاء من نصبها في العتبة، ملقًى عليها كغطاء، أو ككفن. يحدث حين كنا نلتقي في منعطف رغبة أو شهاب احتراق لنجوى تأججت بالذكرى، أن تنضو بعض فتنتها، تقول خذني، أو امنحنيك يا الضائع أبدًا في متاه الصبوات. يحدث أن تصفر الريح، تجلب بين التركيب والعطف والاستفهام علامة للتعجب، لكي لا يخلو عالمنا من الدهشة. يحدث أن ينازل الواحد منا آخره فيها؛ لأن نسغها من الرحم يكبر فينا، والسلالة تقيم أعراسها دائمًا بالدمقس وبالحرير، وذاك مذ علقت أطلال خولة على جدران الكعبة، وباءت قريش إثرها بخسران مبين. يحدث حتى أن ننسى الذي به جئنا ومن أجله كخير أمة، وحين تتراقص أمامنا على وسن الحلم نعود نجمح في الصهيل، نرقى بالصهوات ثانية كأننا لن نعرف الكبوات إلى ذرى بلاغتنا وسمو أعراقنا راحلين من الاستعارة الصريحة إلى المكنية عسى غفوة المجاز تطول. وكم جعلتُ منها مقارعة للمنايا، وفرسانًا تدكُّ الجبال ما شقَّ لها غبار؛ كم صارت كل ما أملك وأغلى ما يُمتلك، لا تبديل لكلمات الله، لم أقبل دونها الرجوع إلى السطر أو أي بدل.

وقفت عند عتبتها عيوننا مطفأة. رماد في المحجرين وغار انحفر. من فعل بك هذا؟ من فعل بك هذا؟ لا أسمع! لن تسمعي! ما القول؟ من، ما أنت؟ ماذا وقوفك والفتيان؟

آه، حقًّا، من عدت، كنت؟ هي مسجاة، أراها بلا حراك، أطرافها متباعدة كالمهشمة، أشلاء، مفحَّمة أو كالمكبَّدة، ناتئة خارج خرق سوداء. هي لم تمت وإلا لوضعوا لها كفنا أبيض، هي ليست حية وإلا لنثرت علي فتنتها وواجهتني للمنازلة «كدأبها من أم الحويرث قبلها.» لم ألكزها ولا هي تثنَّت خلسة المختلس. صرت خبيرًا بالدلال لما تكالبت علينا الفتن، فأسلسنا القياد، لقد «تكسرت النصال على النصال» لكني لم أملك رغم كل شيء إلا أن أعود أقف عند عتبتك، أي لا مقتربًا ولا مبتعدًا، جسدي رماد وأنا من عجب مشتعل بحرائقك القديمة، ولا حول لي، ولا سطوة، تناثرت دفاتر الذكري، الحرب لا أكثر من شظية ساهية، والأمة نطفة في الرحم ساجية، وحق القرآن، مع الدفاتر بعناها، طُمرت حية، «هي آخر ما يباع من المتاع» … غير أن الصرخة رغم كل شيء واقفة، صاحبي القديم ظل يصرخ دهرًا، ظل يسري في البلاد، بكل غناءٍ يشدو، وكل نعيب من فرط الهلاك ينعى العباد، قبل أن تنطفئ شمس الله في بغداد، وبعد خرابها إرم ذات العماد، ولم تسقط الصرخة، أسمعه الآن المجاطي من مقبرة الشهداء برباط الفتح أمس ينفض عن أرض المغرب اللحد، ويستأنف العدَّ، ولسان الشاعر فيه ما انفك يكابد: «ظمئنا والردى فيك/ فأين نموت يا عمة؟!»

إنما، كيف أبقى أمامها، أي في لا هنا، حيث لا ينبغي أن أوجد، والحرب مشتعلة في الهناك الصحيح؛ حيث ترسانة غولدا وغوندوليسا ترسل القتل الصريح، تجريان محادثات تدور دائمًا في جوٍّ وديٍّ، يتم فيها التوقيع بجميع حروف الأبجدية على إبادة العرب، شرقًا وغربًا، حتى لا يبقى لقحطان وعدنان أثر، وتوءَد العربية قبل أن تنجب في الخلق محمدًا أو عليًّا وعمر. حتى توءَد أو تصير أمَة، مثل سائر هؤلاء الغلمان والهَرَمة، كروش وعروش تتوسطها نجمة داوود وتزحف على خلفها، يجرها السيد اليانكي لتولغ في دمها الذبيح. ويحها الكلمات لا تعرفني، الموت الزؤام شاخص لي، قدَّت أمتي من دُبر، غولدا تعربد في سماي، تحرث أرضي بلحم أهلي، محراثها عظم جدي وأولادي، وسمادها نومي على حكي أمي، تاريخ تنتن بالهوان، وأطلال أحبة كانت هواي. لا أعرف حتى وجهي، نظري في صورة القتل، قتل العربي الزري، يرتد لي، تارة يصفعني بالإنكار، أخرى يبصق في وجهي، اتفو! أوَلا تعرف معنى العار؟! أصابعي تنسل عن يدي نافرة في الهواء، لا تعرف ما الورق، عنها تصد الكتابة، جف ما كان من حبر، وفاض الدم عن محبرة الكآبة. أردت أن أستردها فتجمعت قبضة هَوت على رأسي: أفِق، الأصابع هي للزناد اليوم يا ولدي، للقتل المباح، لتواقيع الهمج الجدد، أنبياء الحداثة العظمى على بروتوكول إبادتنا، أفِق، غدًا ستمطر دمًا ملء سحابة!

بلى اليوم. جُستُ العتبة، ولم أجانب الجثث المنتشرة، ولا الأشلاء ما انتثر منها، وما هو بعد راجف فوق ركام قصف الشمطاء غولدا، وتباريح ليسا الفجَّار، راعش بأصبع الشهادة، بعد تفجير أصبع الديناميت في دبابة القتلة. صرتُ بالداخل دفعة واحدة؛ فإذا الكلمات الموتى أحياء، هم دائمًا عند ربهم يرزقون، تحتاج إلى الفرسان والإيمان وفحول الشعراء، بلى سمعت في باحة الحرم الشريف، وبلسان الشرفاء الأحرار: ستخون لو عاديتنا، نسيتنا، فذاك ما يريده الأعداء، أن تسقط البندقية، يأسن نهر الكرامة فينا، يجف في كل الحناجر منا نبع النداء. انظر، إنهم بيدٍ يضغطون على زر الدمار، وبالأخرى يهيئون لنا أنسب العبارات لسلام الجبناء. أخذتها، إني لأحضنها، أمسح الجرح عنها بجراح نازفة، أهيل على الموتى خشية غربان أخرى ظل أشجار الله الوارفة، من يدري قد يساعدني الله؛ فيعيد الروح إلى هذي الرمم، أو يرمينا إلى هذا الحد إلى الهباء! الأطفال الذين على طريق الموت حروف مضيئة، كل طفل نجمة هوَت وأينعَت في الأرض حديقة، كل وليد سيولد عندنا غدًا شهيد بقتلك أيها المجرم بوش، دعني من آذانهم في يدك النخاس، وجه «زينب» قانا إلى أبد الدهر ثأر سنطلبه وبيان حقيقة. وحدها بعد ملاذنا أم سنكفر أيتها السماء. وحدها زينب والصحب الملاك أشلاء في العراء … «فلا نامت أعين الجبناء.»

الكلمات التي كانت سابقًا، فخر أبي الطيب في البيداء،
اقتحمَتني، وتفجرت، لا تفهم العتبات هي، ولا لغة الحُداء.
العربية اليوم إذا لم تصبح قذيفة في وجه قاتل زينب،
كل هذه العربية، الأرومة، العقيدة، دنان الزمن، أو محض هراء؟
تجاوزتني الكلمات. أنا لا أكثر من جدث، قِربة في الهواء!
الكلمات دفنتني — حسبتني حيًّا — وطارت إلى معراج الشهداء.

ثمة شاعر يغرد في داخلك

كنت قد أزمعت على الصمت، وقطع «دابر» بوح حارق كالهجير. قلت هذا الصيف مالك الدنيا اليوم؛ فمن يسمع قولي أو يتدبر أي حال، تحت شلالات الشمس وفيض الجسد؟! حيثما أرسلت الطرف ارتخى والمنظور نخى، لا يحفل إلا بعين تساورها رعشة، وأخرى تهدهدها صبوة، وثالثة هي الشهوة النابحة، وآخرتي، أينها؟ فتنة جارحة.

كنت قد خلعت سربال الكلام، وطويته مع ثياب فصل غادر، بل إني جمَّعت صررًا من المفردات، والمصطلحات، وإليها مزيد صور واستعارات، معها الحر في رأسي، وحمَّى لحمي وكأسي، وقرف لا يفوت لأحلام لا تكف تموت، وعصرت كل ما تبقَّى في جسدي من حس، بل نفضت عني حتى همسي، قلت أريد أن أصير خفيفًا، نحيلًا، لا يبقى بيني والدنيا سوى المسافة إلى رمسي، لا يشدني شيء إلى اليوم، ولا غد وذاك فات، أستبيح أمسي.

أنا طويتني معها في كيس بسعة العالم، وأردنا أن نرتمي جميعًا في هوة بحدود القيامة، من يدري ربما تقوم بعدها القيامة، ما دام لا أحد يسمع كلماتنا، يزدري ألسنتنا ولغاتنا، ولا يحفل لوقوفنا الطويل أمام باب الله، وخلف أسوار التاريخ، ندق، ندق بقبضة عاتية، ونفتل من سبيب الريح عاصفة هوجاء حسبناها حتما آتية، فلم نظفر بغير انكسار العمر وبضع كنايات خابية. لم أكن واحدًا أبدًا، لم نتعلم أن نكون واحدًا يومًا. تربينا أن المجد هو الحشد؛ ولذا وحدي أتعدد، تتكاثر أسمائي وأفعالي وعبارتي وغضبي وحسرتي لعبور الشهب البارقة، دائمًا، بلا نار كالتي حسبناها يومًا ستلعلع، وما هي إلا تلهث نحو انطفائها في لجة صمت مريب، لا ينادي على أسمائي، يهمل الفعل، يشيح عنها مزدريًا سبيل صفاتي. نعود ندق، لكن بقبضة واهية، فترت منا الهمم، بجسوم وتاريخ كاللمم، لا تسعفنا اللحظة الفانية.

كنت، وكدت، وها أنا ذا أفعل، لا أفعل، لا أرخي اللجام، فمن أنا إذا حان الجموح ولم أجد لا راحلتي ولا فرسي، وسأتوهم أن جسدي غمدي أستل متى أشاء منه سيفي، وأخوض الغمر، ولا بأس أن يصبح جدي هو الكيخوطي، وأنا الذي أجداده النبي الكريم محمد، وعمر، والمتنبي، فالوهم خير من العدم، ولعمري طواحين الهواء أجدى من رقدة الجبناء. وفجأة، في المسافة الفاصلة بين استقالتي من الكلام وانتشار جسد الصيف على ما تبقَّى لنا من ساحل البلاد؛ فجأة أطلَّت سحابتك وشاحًا ظليلًا قلت — ومعي من جدَّفوا طويلًا في تيه العمر — هذا فيئنا بعد طول أصياف، وللتو رأيت الشمس تنحسر لتترك لكلماتك الامتداد، كله. فأنت بإيجاز تكلمت فأبنتَ وبنيتَ وأضأتَ وتوضأتَ بطهارة من يتحاشى أن تعلق به الأدران. أنت تسكن عادة في سريرتك؛ فإن سمع الهديل قربك حسبوه منك، بينا تكظم الغيظ، وتطوي الندب إلى الندب، وحنجرتك، أيضًا، تبقيها برعمًا فيما الأصوات حولك، حولنا لجاج وهياج، تتدافع الشعارات مع المناكب، وحمرة الخجل يبددها انتفاخ الأوداج. وهذا من أجل ما تعرف، مع من لم ينسوا أن المناضل، أن الإنسان، شرف وعهد.

سيتساءل القارئ محقًّا: من ذا الذي تُتوِّجه هذي الخصال، وهل إلى زماننا ينتسب أم إلى سالف العصر والأوان؟ فأجيب إني أحدثه بضمير المخاطب لئلا يلحقه أحد بالغياب، وعندي أن حضور الأوفياء وأهل التقى اليوم أوجب وأجلب للخير من كثير أشباح تملأ الساحات بأجسام ضخام. وأقول للقارئ ثانية سَمِّ أنت من تشاء ممن تحب أو تعتبر، وستجده حالًّا فيه يعيد إليك الأمل في ما خلته هوى وانقضى، وتفاءل به عندما يملأ الأفق الغربان العوادي، بنعيب تنبري لهزمه بيض الغُرر تعيد للأصل أصله، وخطانا إلى طريق الكبرياء. أعلم أني أحرج مقام الشيم عندك، فحسن العهد وصدق الوعد لا تبتغي دليلًا فهي من طبعك، خاصة من كانت سريرته ظاهرة وعلانيته مرضية، أنعم بها من عيشة راضية. إنما، وكما أفصح شيخنا التوحيدي؛ فإن «الكلام إذا وجد مسرحًا لم يقف، والخاطر إذا أصاب سحًّا لم يكف.»

أجمل الأمور، بعد هذا، أن نصدق أنفسنا ونحن نقبض على زمام مصيرنا في كلمات يحسبها الغُفل مضيعة وقت وترجيع أوهام، أما أنا فلن يلهيني شتاء ولا يعفيني صيف عن مواصلة تدبر بعض شئون الدهر، أم الزمان، وتعقب كيفية تقلب سلوك الأنام على مدار الأيام. لن يثنيني عن هذا الامتحان نضوب ماء الوجه عند كثير، ولا حتى متى يبلى ثوب المروءة وتعقم أمُّ الوفاء؛ لإيماني أن الكلمات — أيضًا — هي مرآة القلب، فلا

تطلبها إلا عند الملتاع الصبِّ، تهبط عميقًا في جوف النفس وتغور كأن اللفظ انقطع يكاد صاحبها يقول نذرت للرحمن عمري أن لا أكلم الدهر إنسيًّا، لائذًا بعصمة صدقه، ومستلهمًا الحكيم سقراط يعلِّم الإنسان أن افرَح بما لم تنطق به من الخطأ أكثر من فرحك بما لم تسكت عنه من الصواب. لكن لا حيلة لي، فما هذا منتجعي، ولن يقال إننا بتنا نصمت جبنًا أو نسكت على ضغن وإحنة؛ فإن نطقنا لاعن غيظ ودمنة؛ الحِلم لنا خليقة والحُلم فوق رءوسنا مجد وسحابة نستمطرها كلما عطشنا، فتسقينا ربابة، إليها يفضي عشقنا، ومنها نئوب كلنا طرب … وصبابة …

وإذ أراك يمَّمت شطر ما تحسبه الباب الأخير للخروج لا أجد بدًّا من مخاطبتك ثانيًا ولاحقًا بأنك إلى دخول جديد أقرب، فيا صنو روحي وسميَّ جدي، أنا وأنت، بل نحن جميعًا أسباط ذاك العهد التليد لم تنطفئ في عيوننا هاتيك النجوم، وما زلنا على مِلتنا نقول هل من مزيد؟! وألطف القول آتيك به من فم المجرب والطبيب، في آنٍ، سيد البيان أبي حيان، يعنيك ويعنيني بترغيبه، ألا: «إنك قريب الدار بالأمل؛ داني النُّجع بالقصد؛ رحيب الساحة بالمنى، ملحوظ الحال بالحسد، مشهور الحديث بالدرك.» وأنت تعلم، بعد هذا وذاك، أن المؤمن قد يستفتي صحبه ولكن أبدًا لا يغادر قلبه، لا سيما إذا كان في داخله شاعر يغرد حين يطيب له الحب … مثلك.

هنداوي